آفاق الغد

راشد الغنوشي

المرأة المسلمة في تونس

بين توجيهات القرآن وواقع المجتمع التونسي

دار القلم
الكويت

المرأة المسلمة في تونس

بين توجيهات القرآن وواقع المجتمع التونسي

بسم الله الرحمن الرحيم

٢١٠٫٤
غ ز م

المرأة المسلمة في تونس

بين توجيهات القرآن وواقع المجتمع التونسي

تأليف
راشد الغنوشي

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
مزيدة ومنقحة

دار القلم للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو

الحلقة الأولى

مقدمة

إنّ صلاح الإنسان ورعايته من أجل تحقق أقصى الكمالات الممكنة لطبيعته هو الهدف الأساسى للقرآن الكريم ورغم ما بين الناس من اختلاف فى اللّون والجنس والمدارك والمواطن فليس لذلك من أثر فى عموم الخطاب القرآنى ؛ ولذلك صرّح علماء الأمة بأنّ خطاب القرآن بصيغة التذكير يشمل النّساء ولا تحتاج العبارات

(*) هذه الحلقة والأربع التى تليها كتبت بسجن الناظور سنة ١٩٨٤

من الكتاب والسنّة فى إجراء أحكام الشريعة على النّساء إلى تغيير الخطاب من تذكير إلى تأنيث(١).

فالأصل إذن فى الخطاب القرآنى عموم الرّجال والنّساء إلّاما ثبت اختصاصه ولكن وراء ذلك العموم خصّت المرأة فى القرآن باهتمام كبير منذ نشأة النّوع البشرى فتحدث القرآن عن مكانتها فى التصوّر الدّينىّ وفى الأسرة وفى المجتمع وسائر علاقاتها الاجتماعية ، كما تحدّث القرآن عن نماذج نسائيّة وحملت ثانى أطول سورة فى القرآن باسم « النساء » وتجاوزت الآيات التى خصّت بالحديث عن النّساء آية ٢٥٠ .

وسنحاول فى هذه الحلقات استعراض أهمّ الموضوعات النسائيّة فى القرآن ملقين عليها أضواء من أئمّة الفكر الإسلامى عبر تاريخ هذا الفكر ممثّلا خاصّة فى كتب التفسير وهى تمثّل الجهد البشرى فى استجلاء وتفهّم الوحى وتبيّن مراده وبديهى أنّ التّفسير عمل بشرى مهماً توفّر له من أدوات الصّنعة يبقى محدودا بحدود ملكات المفسّر متأثرا بالاتّجاهات الثقافية السّائدة فى عصره ومستوى تطور العلم ممّا يجعل تلك الجهود مهما كانت ضخامتها لا تعدو كونها اجتهادات مأجور ومشكور أصحابها ولكن النّص القرآنى تبقى له ذاتيّته واستقلاله وتعاليه وامتناعه عن التّحديد فى أى قالب تفسيرىّ محتفظا بثرائه اللاّمحدود وقابليته لإنتاج فيوضات

---

(١) مقاصد الشريعة ص ٩٦ تأليف محمّد الطّاهر بن عاشور الشّركة التونسيّة للتوزيع

غزيرة من المعاني والحكمة المتجددة بحسب ارتقاء الفكر وتطوّر العلوم . ولعّل ذلك بعض ما عناه حبر القرآن وترجمانه « ابن عبّاس » إذ قال : « القرآن يفسّره الزّمن »(٢) .

أصــل واحــد :

﴿ يا أيها النّاس اتّقوا ربّكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ .

[أول آية من سورة النّساء]

إنّ مسألة النّوع الإنساني من أكثر المسائل التي شغلت ولاتزال الفكر البشري من أقدم العصور وذهبت فيها الآراء مذاهب شتّى اختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة لدرجة يصعب التمييز بينها وأكثر الآراء إنتشارا في الوسط الدينيّ يوم ظهر الإسلام ما ورد في سِفْر التكوين فى الفصل الثاني من أنّ الله خلق آدم وخلق من ضلعه الأيسر وهو نائم حوّاء ورغم أنّ شيئا من ذلك لم يرد فى نصوص القرآن والسّنة فقد ذهب جمهور المفسّرين إلى اعتبار النّفس الواحدة فى هذه الآية وغيرها هي آدم وأنّ حوّاء خلقت من ضلعه على حين ذهب مفسّرون آخرون قدامى ومحدثون إلى أنّ هذا الفهم ليس ملزما بل هناك ما هو أولى منه بسياق الآية بل وهّن بعض المفسّرين المحدثين الرّوايات المتضمّنة لهذا المعنى بأنّها مشوبة

---

(٢) ابن كثير – تفسير – .

بالإسرائيليات لايمكن أن نعتمد عليها »[3] .

نقل الرّازي عن أبي مسلم أنّ معنى (خلق منها زوجها) خلقه من جنسها فكان مثلها[4] .

فأصل البشر زوجان مخلوقان من جنس واحد أو مادّة واحدة . **فكأنّ الآية حسب هذا التفسير تركّز على فكرة التماثل والتساوى وتضرب فكرة التميز والمفاضلة بين شقّي الإنسانية وتضرب في نفس الوقت كلّ تفكير عنصريّ يقوم على تفضيل شعب على شعب آخر أعتماداً على نبل الأصل ! وصفاء الدّم ! .**

يورد الرّازى ثلاث تأويلات لهذه الآية : « التأويل الأوّل ماذكره عن القفّال وهو أنّه تعالى ذكر هذه القصّة على سبيل ضرب المثل . والمراد خلق كلّ واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه فى الإنسانيّة الخ والتأويل الثانى : أنّ الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد النبى – صلىّ الله عليه وسلّم – وهم آل قصي وأنّ المراد بالنّفس الواحدة قصي والتّأويل الثالث أنّ النّفس الواحدة آدم »[5] .

ويرجح الرّازى من بين هذه التأويلات التّأويل الأوّل بوصله لغويّا وعقليّا دافعا بقوّة التّأويلين الآخرين والأخير خاصّة وكأن الثانى غير

---

(3) سيّد قطب في ظلال القرآن ج3 . ط : دار الشّروق .
(4) نقلا عن تفسير المنار ص : 330 المجلّد : 4 .
(5) نفس المصدر ص : 325 .

جدير حتّى بالرد لتصادمه مع التوجّه الإنسانيّ للقرآن يقول : « ويمكن أن يجاب بأن كلمة من [فى قوله تعالى خلقكم من نفس واحدة] لابتداء الغاية ، فلمّا كان ابتداء الخَلق والإيجاد وقع بآدم عليه السّلام [أى ابتدأ الخلق به] صحّ أن يقال : « خلقكم من نفس واحدة » وأيضا فلمّا ثبت أنّه تعالى قادر على خلق آدم من التّراب كان أيضاً قادرا على خلق حوّاء من التّراب وإذا كان الأمر كذلك فأيّ فائدة فى خلقها من ضلع من أضلاع آدم ويعلّق الأستاذ رشيد رضا قوله وهو يدلّ على اختيار ما اختاره أبومسلم ومثله الأستاذ الإمام « محمّد عبده »[٦] ويضع الأستاذ الإمام الآية فى سياقها دافعًا تأويل الجمهور للنّفس الواردة في الآية من أنّها تخصّ آدم بقول : « وأحسن من هذا أن يقال : أنّ هذا تمهيدًا لما يأتى من أحكام اليتامى ونحوه كأنّه يقول : « ياأيّها النّاس خافوا الله واتّقوا اعتداء ما وضعه لكم من حدود الأعمال واعلموا أنكم أقرباء يجمعكم نسب واحد وترجعون إلى أصل واحد فعليكم أن تعطفوا على الضّعيف كاليتيم الذى فقد والده وتحافظوا على حقوقه » .

ويضيف « أنّه ليس المراد بالنّفس الواحدة آدم بالنّص ولا بالظاهر والقرينة على أنّه ليس المراد هنا بالنّفس الواحدة آدم قوله : ﴿ وبثّ منهما رجالاً كثيرا ونساء » بالتّنكير وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول : وبثّ منهما جميع الرّجال والنّساء وكيف ينصّ على نفس معهودة والخطاب عامّ لجميع الشّعوب . وهذا

(٦) تفسير المنار ص : ٣٢٥-٣٣٢ .

العهد ليس معروفا عند جميعهم . فمن النّاس من لا يعرفون آدم ولا حوّاء ولم يسمعوا بهما .. وقد أبهم الله تعالى أمر النّفس التّي خلق النّاس منها وجاء بها نكرة فندعها على إبهامها .

« وأقول زيادة في الإيضاح إذا كان جماهير المفسّرين فسّروا النّفس الواحدة هنا بآدم فهم لم يأخذوا ذلك من نصّ الآية ولا من ظاهرها » بل المسألة المسلّمة عندهم وهي أنّ آدم أبوالبشر ..

والذي يريد أن يصل إليه الشّيخ عبده ليس نفي كون آدم أبا البشر وإنّما كون ذلك أمرا ثابتا فالقرآن يثبته إثباتا قطعيّا لا يحتمل التّأويل »[7] .

والذي يميل إليه الأستاذ الإمام « أنّ المتبادر من لفظ النّفس بصرف النّظر عن الرّوايات والتقاليد المسلّمات أنّها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو الكائن الممتاز على غيره من الكائنات أي خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة »[8] .

بل إنّ النصّ القرآني لاينفي في رأي الأستاذ الإمام أن تكون النّفس الأولى هي حوّاء وليست آدم ..

يقول هذا : وإنّ في النّفس الواحدة وجها آخر وهو أنّها الأنثى ولذلك أنّثها حيث وردت وذكر زوجها الذي خلق منها في آية الأعراف فقال : ٧-١٨٩ ليسكن إليها » .

---

(٧) تفسير المنار ص : ٣٨٣-٣٢٤-٣٢٥-٣٢٦ .
(٨) نفس المصدر ص : ٣٢٧ .

وعليه يظهر افتتاح السّورة بها ووجه تسميتها بالنّساء أكثر. وأصحاب هذا الرّأي يقولون: إنّه من قبيل ما هو ثابت إلى اليوم عند العلماء من التّوالد البكري وهو أنّ إناث بعض الحيوانات الدّنيا تلد عدّة بطون بدون تلقيح من الذّكور[٩]..

على كلّ حال وكلّ قول يصحّ أنّ جميع الناس هم من نفس واحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناسا وهي التي يتّفق الذين يدعون إلى خير النّاس وبرّهم ودفع الأذى عنهم على كونها هي الحقيقة الجامعة فتراهم على اختلافهم في أصل الإنسان يقولون عن جميع الأجناس والأصناف: أنّهم أخوتنا في الإنسانية فيعدّون الإنسانيّة مناط الوحدة وداعية الألفة والتّعاطف بين البشر وهذا المعنى هو المراد من تذكير الناس بأنّهم من نفس واحدة لأنّه مقدّمة للكلام في حقوق الأيتام والأرحام، **وليس كلاما مستقلاً لبيان مسائل الخلق والتّكوين بالتّفصيل لأنّ هذا ليس من مقاصد الدّين**.. ونفس الأمر أنّ النّاس مخلوقون من الزّوجين: الذكر والأنثى وهما نفسان ثنتان سواء خلقتا مستقلّتين أو خلقت إحداهما من الأخرى كما قال تعالى: **﴿ياأيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا..﴾**[١].

---

(٩) وذلك مثل النحلة التى تلقّح مرّة واحدة ليستمرّ توالدها بعد ذلك إلى نهاية حياتها ويذهب بعض علماء الطبيعة والبيولوجيا اليوم إلى إنّ الأنثى هي الأصل يراجع كتاب الإنثى هي الأصل لنوال السعداوي.

(١٠) تفسير المنار ص: ٣٣١-٣٣٢.

وهكذا يجتهد الإمام في تحرير النصّ القرآني حول مسألة أهل الجنس البشريّ من كلّ التراث الأسطوري والديني الذي سبق الإسلام والذي كان له تأثيره الواضح على كثير من رجال الفكر الإسلامي في فهمهم للنصّ القرآني ولم ينته الأستاذ الإمام في تفسير النّفس الواحدة التي أشار إليها النّص القرآني إلاّ إلى دحض كلّ تأويل ثبوتيّ للنصّ فاتحا بذلك مجالاً واسعا من حرّية البحث والتفكير أمام العقل والتطوّر العلميّ على نحو لايوقع المتديّن في الحرج والتمزّق والجمود والتحجّر .

ويؤكّد العلّامة الشيعي محمّد حسين الطّباطبائي صاحب الميزان في تفسير القرآن وعضو مجلس (المحافظة على الدّستور) في الجمهورية الإسلامية لإيران يؤكد على نفس اتّجاه الإستاذ الإمام في تفسير آية النّساء المذكورة يقول : وظاهر الجملة أعني قوله : وخلق منها زوجها أنّها بيان لكون زوجها من نوعها بالتّماثل وأنّ هؤلاء الافراد المبثوثين مرجعهم جميعا إلى فردين متماثلين ، متشابهين فلفظة من نشوئيّة والآية في مساق قوله تعالى : **﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة ﴾ .**

[الروم : ٢١]

وقوله تعالى : **﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾**

[النحل : ٧٢]

وقوله تعالى : ﴿ فاطر السّماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام يذرؤكم فيه ﴾

[الشورى : ١١]

ونظيرها قوله : ﴿ ومن كلّ شيء خلقنا زوجين ﴾

[الذاريات : ٤٩]

فما في بعض التّفاسير أنّ المراد بالآية كون زوج هذه النّفس مشتقّة منها وخلقها من بعضها وفاقا لما في بعض الأخبار : إنّ الله خلق زوجة آدم من ضلع من أضلاعه ممّا لا دليل عليه من الآية »[11] .

أما الأحاديث النبويّة التى تعرّضت لخلق المرأة والتي يبدو أنّها أوقعت كثيرا من المفسّرين في شباك الإسرائيليّات إذ حملوا ما ورد في القرآن من حديث عن النّفس الأولى أصل النّوع البشريّ من أنّ تلك النّفس هي آدم وأن حوّاء خلقت من ضلعه وذلك فيما يبدو بسبب التّشابه اللّفظيّ بين قصّة الخلق وخلق حوّى كما وردت في التوراة وبين تلك الأحاديث مثل إنّ المرأة خلقت من ضلع فان ذهبت تقوّمها كسرتها وان تدعها ففيها أوَدٌ وبُلغة » رواه أحمد والنّسائي عن أبي ذر .

---

(١١) الميزان في تفسير القرآن المجلّد الرابع منشورات مؤسسّة الأعلمي ،بيروت – لبنان .

« إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها » رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .

إنّ المرأة خلقت من ضلع وإنّك إن ترد إقامة الضلع تكسرها فدارها تعش بها » رواه أحمد وابن حبان والحاكم في المستدرك .[١]

إنّه ليس في هذه الأحاديث ما يستدل به من قريب أو بعيد على تأييد ماورد في كتب اليهود من أن حواء خلقت من ضلع آدم بل **كل ماتضمّنته توجيهات تربويّة للرّجال في التعامل مع النّساء بالرّفق والمودّة بَعيدًا عن العنف والعجرفة** . وقد جرت على عادة أسلوب العرب في التمثيل وتقريب المعاني المجرّدة بصياغتها في صور حسيّة يقول صاحب المنار في تفسير آية الأعراف : ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها** ﴾ (٧) « والآية تدل على أن آدم كان له زوج أي امرأة وليس ما في القرآن مثل ما في التوراة من أن الله تعالى ألقى على آدم سباتا انتزع في أثنائه ضلعا من أضلاعه فخلق له منه حوّاء . وإنّها سمّيت امرأة لأنّها من امرىء أخذت وما روى في هذا المعنى فهو مأخوذ من الإسرائيليات . وحديث أبي هريرة في الصّحيحين « فإن المرأة

---

(١٢) الأحاديث الثلاثة أخرجها وصححها العلامة محمد ناصر الدّين الألباني في صحيح الجامع الصغير مجلّد ط ـ منشورات المكتب الإسلامي .

خلقت من ضلع » على حدّ خلق الإنسان من عجل بدليل قوله : « فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » أي لا تحاولوا تقويم النّساء بالشّدة[١٣] .

ولا يتردد الأستاذ سيّد قطب – على حرصه الشديد على التزام المنهج السّلفي فى تفسيره – في التأكيد على نفس الاتجاه في هذه القضيّة يقول : « فالنصّ الذي معنا وأمثاله في القرآن الكريم لاتتحدّث عن هذا الغيب بشيء .. وكلّ الرّوايات التي جاء عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات، لا نملك ان نعتمد عليها والذي يمكن الجزم به هو فحسب أنّ الله خلق له زوجا من جنسه فصارا زوجين اثنين والسّنة التي نعلمها عن كلّ خلق الله هي الزوجيّة « ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون » .

فهي سنّة جارية وهي قاعدة في كلّ خلق الله أصيلة ، وإذا سرنا مع هذه السنة فإنّ لنا أن نرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلا بعد خلق آدم وأنّه تم على نفس الطريقة التي تمّ بها خلق آدم »[١٤] .

النتيجـــة :

إنه ولئن ذهب أكثر المفسّرين إلى تأويل النّصوص القرآنية المتعلّقة بمسألة خلق آدم وزوجه عليهما السّلام إلى اعتبار حوّاء مخلوقة

(١٣) تفسير المنار .

(١٤) سيد قطب « في ظلال القرآن » مجلّد ٣ ط : دار الشروق .

من ضلع آدم حقيقة مسلّمة فإن هذا التأويل ولئن أمكن لتلك النّصوص أن تتحمّله فإنّها لاتقتضيه حتمًا بل هي تقتضيه كما تقتضي غيره وإنّما الذي ساقهم إلى هذا التأويل المنهج الذي اتّبعوه في اعتماد التراث الإسرائيلي الدينيّ في تفصيل ما أجمله القرآن من قصص مع أنّ النّصوص القرآنية والحديثة لم تفتأ تحذّر من مغبّة التّلقي عن أهل الكتاب في أمر من أمور الدين . والذي دعّم تأويلهم ذلك ما ورد في حديث النبي ، عن طبيعة المرأة من ألفاظ توحي بالشّبه مع قصّة الخلق كما وردت في التراث اليهودي مثل عبارة الضّلع الأعوج الذي خلقت منه المرأة وان لم يذكر الحديث اطلاقا أنه ضلع آدم ممّا يُستبعد معه أن يكون موضوع الحديث هو المسألة التشريعية بقدر ما هو حديث عن نفسية المرأة وخلقها وتوجيه نبوي إلى ضرورة الرفق في التّعامل معها وتجنّب الشدّة والعنف . وذلك هو اللائق باهتمام القائد في بيانه التوديعيّ للأمة « حجّة الوداع » [أوصيكم بالنّساء خيرًا] والمناسب لسياق الخطبة كلّها التى كانت مجموعة توجيهات في الميدان الاجتماعي والاقتصادي والسياسيّ والخلقي ولم تكن درسا في العلوم الطبيعية والبيولوجيّة[١٥] .

(١٥) يرى المفكّر الإيراني اللّامع الأستاذ علي شريعتي إن القرآن اكد في مسألة الخلق على وحدة المادّة التي خلق منها النوع الإنساني نفيا للفكرة المقابلة التي تؤكّد – كما فعل الفيلسوف الألماني نيتشه على اختلاف مادة الخلق الأولي بين الرجل والمرأة لتبرير الأيديولوجية العنصرية، ولإثبات دونيّة المرأة أما القرآن فيقول بأن الله خلق المرأة من طبيعة الرجل=

ورغم ما قد يبدو من تشابه بين اعتبار حوّاء من ضلع آدم خلقت وبين اعتبارها خلقت من جنسه بعمل إلَهي مباشر إلا أن الفرق في الحقيقة هام جدّا بين التأويلين على صعيد النظري والعملي . فإن الإلحاح وبدون دليل حاسم على التأويل الأوّل للنص القرآني لا يحمل - بشكل واع أو غير واع من أصحابه - إلاّ تكريس تبعية المرأة للرّجل على الصعيد الاجتماعي وانمحاء شخصيتها وذوبانها في شخصيته وتكريس التمييز والأفضليّة على أساس الجنس مما يتنافى مع مقاصد الشريعة على حين أن التأويل الثاني فضلا عن مستنداته اللغوية الوجيهة وتساوقها مع جملة النصوص الواردة في الكتاب حول هذه القضية هو تأصيل لمفهوم إسلامي وإنساني أساسيّ ناضلت الحركة النسائية المعاصرة طويلا من أجل تحقيقه وهو تحقيق استقلال شخصية المرأة وتحمّلها مسؤولية وجودها ومصيرها كاملا . والقضاء على أوّل وأقدم اضطهاد للإنسان لأخيه الإنسان على أساس الفوارق الجسميّة كخطوة أساسية للقضاء على كلّ تمييز يقوم على أساس العرق والطّبيعة وذلك من أجل مجتمع إنسانيّ تنهار فيه كلّ مبرّرات التّفرقه والعنصرّية والاضطهاد من أجل مجتمع إنسانيّ يقوم على أساس المساواة والأخوّة بدون أدنى تفاضل إلا على أساس العمل الصّالح ﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وهو مقصد أساسي للشرع الحنيف ولنضال الشعوب والطبقات المضطهدة منذ آلاف السنين .

- (آدم) أي أن الرّجل والمرأة من طبيعة واحدة - هكذا تكلّم علي شريعتي ص : ٢٢٤ تأليف فاضل رسول دار الكلمة والنشر ، ط : ٢ - بيروت ١٩٨٣ .

الحلقة الثانية

اسكن أنت وزوجك الجنة

قصّة الخلق الأولى والدُّخول إلى الجنة وإذن الرب لآدم وزوجته التمتُّع بطيبات عدا شجرة واحدة وإغواء الشيطان والوقوع في الخطيئة والهبوط إلى الأرض هي فصول أساسية في الكتب المنزلة بل في كثير من الأدبيات الدينية والفلسفيَّة عامة بشكل صريح كما هو الحال في القرآن وكتب اليهود والنصارى أو بشكل رمزى

كما وردت في فلسفة المُثل عند أفلاطون(*) ورغم أن موضوع تلك القصة متشابه فإنّ دلالتها ومقاصدها متباينة . ولتبيين ذلك يكفي أن نورد بعض النصوص المتعلقة بهذه القصّة من القرآن وكتب اليهود والنصارى .

جاء في **الإصحاح الثالث من سفر التكوين** : كانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية .. فقالت للمرأة : أحقّا قال الله تعالى لا تأكلا من كل شجر الجنّة ؟ فقالت المرأة للحيّة : من ثمر الجنّة نأكل ، وأمّا ثمرة الشجرة التي في وسط الجنّة فقال الله : لا تأكلا منها لئلا تموتا ، فقالت الحيّة للمرأة : لن تموتا . بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منها تفتح أعينكما **وتكونان كالله عارفين الخير والشر ، فرأت المرأة** أنّ الشجرة جيدة الأكل وأنّها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنّظر وأخذت من ثمرها وأكلت . وأعطت رجلها أيضا معها فأكل وانفتحت أعينهما وعلما أنّهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر وسمعا صوت الرّب ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإلٰه وسط شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان واختبأت فقال : من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألاّ تأكل منها فقال آدم : **المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة** . فقال الرّب الإله للحيّة لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من

جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيّام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك ، وأنت تسحقين عقبه .

وقال للمرأة : تكثيرا أكثر أتعاب جهلك ، بالوجع تلدين أولادًا وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك ، وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك ، تأكل خبزا حين تعود إلى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود » .

ونسجت على نفس المنوال كتب العهد الجديد فقد ورد في الإصحاح الحادي عشر من كتاب كورنثوس الثاني :

« ولكني أخاف كما خدعت الحيّة حوّاء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح » .

ومن الإصحاح الثانى « إن أدم لم يغو ولكن المرأة أغويت فحصلت في التّعدى » .

أمّا في القرآن فقد عرضت من زوايا مختلفة يقع التركيز كله مرّة على جانب أكثر من غيره .

ورد في سورة البقرة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم مالا تعلمون ، وعلّم آدم الأسماء كلها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال : يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنباهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا أبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإمّا يأتينكم منّي هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

ومن سورة الأعراف : ﴿ويآآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لها ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين

أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاّهما بغرور فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

[الأعراف : ١٨-٢٢]

المقارنـــة :

ونقف في المقارنة بين هذه القصة كما وردت في العهد القديم والجديد وكما وردت في القرآن عند بعض النقاط .

من حيث السياق : وردت القصة في أسفار أهل الكتاب في معرض الإدانة واللعن وغضب الرب بينما وردت في القرآن في معرض التكريم العلوي للنوع الإنساني :

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ... وعلـم آدم الأسماء كلها ... اسجدوا لآدم ﴾

ـــ يرد الحديث عن الشجرة في التوراة والأناجيل كرمز للمعرفة التى يتوق البشر إليها ولكن الإله يمنعه منها ليبقى جاهلا مغمض العينين وما يحصل على تلك المعرفة إلا بمعصية الرب فيكون جزاؤه اللعن والطرد من رحمة الله لينزل إلى الأرض مغضوبا عليه مطرودًا ، تلاحقه اللعنة فيشقى بينما تمثل الشجرة في قصّة آدم

في الجنّة أداة لاختبار إرادة الإنسان وتدريبه على التحكم في إرادته كعنصر أساسي من تنظيمه لسلوكه ولما هو مقدم عليه من التنظيم الاجتماعي

ـ أما المعرفة فهي هبة من الله للإنسان وتكريم له ﴿ وعلم آدم الأسماء كلّها ﴾ بهذا الإطلاق الدّال على الإمكانيات غير المحدودة للتعلّم التي أعطيها الإنسان والتي هي السبيل لمعرفة الخالق ولتسخير طاقات هذا الكون والتطوّر اللاّمحدود . إنه بالعلم سجدت له الملائكة وَسُخِّرت لخدمته وبالعلم يُسَخِّر الكون كلّه لخدمته والنّهوض بأمانة الحرية والمسئولية والإرادة من أجل تحقيق أقصى الكمال الإنساني وما يجعل الوجود الإنساني على الأرض ليس ثمرة غضب الإهي ولعنة منه حلّت بالإنسان نتيجة الخطيئة الأولى ويعبّر القرآن عن هذه الغاية بالخلافة وهي الغاية الإلٰهية التي افصحت عنها لحظة الإعلان الإلٰهي عن هذا الموجود الجديد ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ . هذا الموجود الذي كُرِّم بالعقل والإرادة والحرية كأدوات نضالية لتحقيق الكمال الإنساني عبر الكدح الناصب والصّراع المرير لاكتشاف الذات والطبيعة والسيطرة عليهما وتطويرهما ضمن المشروع الألهي « الدين » وإقامة مجتمع الحق والعدل والحرية واجتثاث الطغيان والاستغلال .

وعلى ضوء النجاح الذي يحققه هذا الموجود في نضاله من أجل تحقيق ذلك المشروع وتجسيده على المستوى الفردي والاجتماعي

والكون عامة بقدر ما ترتقي إنسانيته ويتحقق كماله ويتهيأ لحياة الخلود في نعيم أبدي مقيم ما كان هيأ له أوّل مرّة بل كانت حياته هناك مجرّد تجربة ظلّت ذاكرته تحتفظ منها بصورة مشرقة تحفزه ذكراها إلى مزيد من النضال ضدَّ الأسباب التي أدت به إلى الحرمان منها مثل الاستماع إلى وساوس الشيطان ومطاوعة أهواء النفس واندفاعاتها ومخالفة أوامر خالقه .

انه يكدح على الأرض وقلبه يرنو إلى هناك .. إلى الجنة وكلّما ازداد حنينه إلى هناك كلّما ازداد كفاحه ضدّ الباطل والظلم والاستغلال والضياع هنا .. وليس عليه إذا وقع في الخطأ إلا أن يراجع نفسه ويخلص توبته كما فعل في أول معصيته .

وما يَهُمُّنا هنا بشكل مباشر التصوّر الذي قدّمه الفصل الأوّل من حياة البشرية في الجنّة عن المرأة كما يصوّرها القرآن وأسفار العهد القديم والجديد .

فعلى حين تؤكد أسفار العهد القديم كالجديد على المرأة كعنصر إغواء ، أغوتها الحيّة وأغرتها بالأكل من الشجرة المحرّمة من أجل أن تصبح وزوجها عارفين بكلّ شيء خالدين لله . فـ « اخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل .. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عرياناك » حتى إذا تلقى آدم لومًا من ربه على عصيانه إيّاه لم يتردد فى تحميل حوّاء مسؤولية إغوائه فتعرضت بذلك إلى العقاب الإلهي فقضي عليها بآلام الحمل والولادة وإخضاعها لسيادة زوجها ..

أمّا آدم فلأنّه استمع لقول زوجته فأكل من الشجرة فقد قضي عليه بالعيش الضنكُ طوال أيام حياته ولعنت الأرض بسببه .

امّا الأناجيل فتذهب أبعد من ذلك في تحميل حوّاء عبء الخطيئة وتبرئة آدم منها « إن آدم لم يغو ولكن المرأة أغويت » .

ولاعجب أن تترسَّخ في البيئات التي سادت فيها هذه العقائد تصورات حول المرأة تقوم على احتقارها والتشاؤم منها واعتبارها أحبولة الشيطان ومصدر كلّ بلاء ومصيبة والنّظر للعلاقات الجنسية باشمئزار لاقتران هذه العلاقة بالخطيئة وليست الرهبنة إلاّ تعبيرا صريحا عن احتقار للعلاقات الجنسية واعتبارها دنسة مغضبة للرب . ولا عجب بعد ذلك أيضا أن يبلغ هذا الاحتقار حد عقد المجامع في الكنيسة لمناقشة ما إن كان للمرأة روح أم لا فينتهي النقاش الطويل حول هذه المسألة في القرن السادس عشر في فرنسا إلى الإقرار بأن للمرأة روحا ولكنّها روح شيطانية !

على حين تفصل كتب اليهود والنصارى ذلك نرى قصّة الخلق في القرآن حول المرأة تؤكدّ على اشتراكها في التكريم الإلهي كزوجها « يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها رغدا حيث شئتما » وتتلقى مثله الأمر بالامتناع عن الأكل من شجرة معينه وتقع مثله في إغواء الشيطان « فوسوس لهما الشيطان فأزلّهما الشيطان عنها » فتتجه وزوجها بقلب خاشع قد عضّه النّدم وصحَ منه العزم على التوبة « قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا

وترحمنا لنكونن من الخاسرين » - « فتلقى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرّحيم » .

وقد لايذكر في القصّة في بعض المواطن إلاّ آدم دون حوّاء « مع أنّ المراد بآدم كما يقول صاحب تفسير المنار - النّوع الآدمي للتنبيه على الشمول وعلى أنّ استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية ، إنه تعالى خلق البشر ذكورا وإناثا وأمرهما بالأكل حيث شاء عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير ، والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر وتوبه الله تعالى عليه عبارة عن هدايته إلى المخرج من الضيق . وذكر توبة الله على الإنسان ترد ما عليه النّصارى من اعتقاد أن الله تعالى قد سجّل معصية آدم وعلى بنيه إلى أن يأتي عيسى ويخلّصهم منها[1] . فالمسئولية فردية ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ - ﴿ وأن ليس للانسان إلاّ ما سعى ﴾ ورغم أنّه ليس في القرآن ولا في الحديث حول قصة آدم وزوجه مايؤكّد أو يشير حتّى مجرّد إشارة إلى تصوّرات أهل الكتاب حول الخطيئة وكتحميل حواء وحدها مسئولياتها عليها فقد حفلت كتب كثير من المفسّرين القدامى بروايات مسندة إلى أهل الكتاب ومن أسلم منهم خاصّة مثل وهب ابن منبه ، نقل مثلا إمام المفسّرين أبو جعفر الطبري روايات لا أصل لها سوى كتب اليهود والنّصارى مع أن النهي صريح في عدم التلقي

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص : ٢٨٢-٢٨٣

عنهم في أمر ديننا . أما القرطبي فقد نقل عن مجهولين أنّ أوّل من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها وأن اوّل كلامه كان معها لأنّها وسواس المحنة وهي أوّل فتنة دخلت من الرّجال على النساء[٢] وتسرّب هذه الإسرائيليات إلى كتب التفسير يدلّ على مدى تغلغل التراث الإسرائيلي المسيحي في الفكر الإسلامي وفي مكوناتنا الثقافية والتربويّة مما كان له أبلغ الأثر في التصوّرات الخاطئة عن المرأة التي تلبست بلبوس الإسلام وغدت أداة تحقير للمرأة وأداة هدم في بنائها الحضاري جملة - تبعا لذلك - .

أمّا الأستاذ سيّد قطب فقد قدم في ظلاله القرآنية من خلال قصة آدم وزوجه تصوّرا كاملا للإنسان وللعلاقات البشرية وللمنهج المعرفة في الإسلام نقتطف منه ختاما هذه المقتطفات .

لقد قال الله تعالى للملائكة : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللّحظة الأولى ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرّمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟ .

« لعلنّي ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذه الخليفة وإعداداً، كانت إيقاظا للقوى المذخورة في كيانه ، كانت تدريبا له على

---

(٢) الجامع لأحكام القرآن ص : ٣٠٧ مجلد ١ .

تلقّي الغواية وتذوق العاقبة وتجيء النّدامة ومعرفة العدوّ والإلتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين .

إن قصة الشجرة المحرَّمة ووسوسة الشيطان باللذة ونسيان العهد بالمعصية والصمود من بعد السكرة والنّدم وطلب المغفرة إنها هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة .

ولقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق ان يهبط إلى مقرّ خلافته مزوّدا بهذه التجربة استعدادا للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيرا .[٣] .

وليس عجبا أخيرا بعد أن تحوّلت المرأة من موضوع للخلق المباشر يوحي باستقلال شخصيتها مثل آدم إلى مجرّد تابع من توابعه أو ضلع من أضلاعه ، أن تتحوّل ضمن البوتقة الخاضعة لتأثير الثقافة اليهودية المسيحية الآفلة من مخاطب كفء للتلقي عن ربّها على قدم المساواة مع زوجها ﴿ **اسكن أنت وزوجك الجنّة ... فكلا منها رغدا حيث شئتما ... ولا تقربا هذه الشجرة ... قالا ربّنا إنّا ظلمنا أنفسنا ..** ﴾ أن تتحوّل ضمن نفس البوتقة إلى مصدر وحيد للإغواء والفتنة وأحبولة للشيطان لا عجب أن تنتقص المرأة تحت تأثير القداسة الدينية المزعومة وتأثير التربية والضغوط الاقتصادية الدّور الذي أعدّت له لا كشريكة في مهمّة الخلافة عن طريق النضال المتواصل لترويض طبيعتها والوجود من حولها من

---

(٣) في ظلال القرآن جـ١ . ص : ٦١ سيّد قطب ط . دار الشروق .

أجل الدّفع نحو أقصى الكمالات الإنسانية على المستوى الذاتي وعلى المستوى الاجتماعي والإنساني أن تهون في عين نفسها فما ترتفع في نظر نفسها عن كونها جسدا ليس لها من همّ إلّا أن تعكف على صقله وتنميقه وتطييبه لتوهم حقيقة بأنّها فتنة وأحبولة للشيطان وممّن ؟ من طرف من هيأها ولا يزال لذلك الدّور .. والأعجب من كلّ ذلك أن ينسب ذلك المسخ للإسلام وما هو في الحقيقة إلاّ خطّة قوى الاستبداد والاستغلال لإلهاء الجماهير المستضعفة عن همومها ومسئولياتها الجهادية من أجل العدل والتحرّر .

الحلقة الثالثة

وليس الذكر كالأنثى

﴿ إذ قالت امرأة عمران
ربِّ إني نذرت لك ما في
بطني محرَّرًا فتقبَّل منّي إنَّك
أنت السميع العليم ، فلمَّا
وضعتها قالت ربِّ إني
وضعتها أنثى والله أعلم بما
وضعت ، وليس الذَّكر
كالأنثى وإني سميتها مريم
وإني أعيذها بك وذريتها من
الشيطان الرجيم فتقبَّلها ربُّها
بقبول حسن وأنبتها نباتا
حسنا وكفلها زكريا ، كلما

دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾

[آل عمران : ٣٤-٣٧]

﴿ يامريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم أقنتي لربّك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ .

[آل عمران : ٤١]

من مظاهر تكريم الإسلام للنساء وإعادة الاعتبار لهن ككائنات إنسانية حرّة ومسؤولة ورفع آصار وأغلال قرون الظلم الطويلة التي رزحن تحتها ، من مظاهر ذلك تنويه القرآن والحديث بمجموعة كبيرة من النماذج النسائية في مختلف الميادين التعبديّة والاجتماعية والسياسية والجهادية ولعل أهمّ هذه النماذج على الإطلاق في تاريخ الملحمة الدينية النسائية مريم عليها الصّلاة والسّلام . فقد اصطفاها الله على نساء العالمين بإطلاق يشمل الزّمان والمكان كله . بل إنّها كما قال عليه السّلام : « سيّدة نساء أهل الجنّة » ومجّدها القرآن بهذا التكريم الإلاهي الرائع **﴿ يامريم إن**

الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين﴾[1] وبلغت درجة من الصّلاح والتعبّد أن ناداها قومها (يا أخت هارون)[2] رغم تباعد الزّمن بينها وبين هارون وعدم وجود نسب غير النسب الروحي والمشابهة بين هذه الفتاة العابدة وبين النبي هارون وقد كان مضرب الأمثال في الصّلاح والعبادة عند بني اسرائيل ولقد حققت بولادتها ونشأتها معجزات توّجت بأعجب حدث في تاريخ التناسل البشري ليس له من نظير غير قصّة الخلق الأولى ﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون ﴾[3] .

كانت بشارة مريم بحملها عيسى عليهما السّلام وهي العابدة الطاهرة البكر التي تربّت على يد نبي في محراب العبادة والتقى امتحانا رهيبا ماكان لغير شخصيتها الفذّة إلاّ أن تنوء تحته وتسحق ﴿ ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴾[4] . وتحققت بذلك أمنية أمّ مريم بأكبر ماكانت تأمل فغدت ليست مجرّد أم لسادن معبد بل أما لمرشد من أكبر مرشدي البشرية لقد كانت ولادتها مفأجاة كبرى لأمّها مفاجاة « غير سارّة » لا لكونها بنتا بل لأن تلك الأم الصالحة التي يبدو أن العمر قد تقدّم بها دون أن تنجب فأنذرت إن هي ولدت ولدا تهبه محرّرا لخدمة المعبد لا يشغله عن

(١) ذكره القرطبي في جامعه : ٤ ص : ٨٤ .
(٢) مريم : ٢٧ .
(٣) آل عمران : ٥١
(٤) مريم : ٢٢ .

ذلك شاغل من شواغل الدّنيا وقد استقرّ في خلدها أن تلد ولدا ذكرا ولعلّها بشّرت بذلك فلمّا كان المولود أنثى أبدت شديد الأسف والحسرة والأسى على ما فاتها من الوفاء بنذرها ﴿ **فلّما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرّجيم** ﴾ .

ولقد انتزع البعض هذه الكلمات من إطارها فأخذ كثير من المفكرين قوله تعالى ﴿ **وليس الذّكر كالأنثى** ﴾ فتكلّفوا في توجيه تقديم الذكر على الأنثى(٥) بينما وردت هذه الكلمة في سياق تكريم الأنثى ودعوة امرأة عمران إلى نبذ الهواجس وضروب الأسى التي ملأت قلبها وهي تفجع في الأمل الذي تعلّقت به طويلا ، أن يكون ها ود كتنازل عن حقها فيه وتفرغه لخدمة المعبد فإذا بالأمل يتبخّر في لحظة ، فماذا عساها تجدي أنثى في وظيفة هي عادة من وظائف الرجال .. ولكنّها لم تملك وقد فجعت في أملها إلاّ أن تشكو إلى ربّها أساها وحسرتها ﴿ **ربّ إني وضعتها أنثى** ﴾ والله — قطعا (أعلم بما وضعت) فأجيبت ﴿ **والله أعلم بما وضعتِ** ﴾ « بكسر التاء » أو والله أعلم بما وضعتْ « بتسكين التاء » تعقيبا من الله على قولها لبيان أن الله يعلم قيمة وأهمية ما وضعت — وهي لا تعلم ذلك — ولو علمت لاستيقنت أن الله سيحقق عن طريق هذه

---

(٥) الميزان في تفسير القرآن ص : ١٧٢ .

الأنثى ما كانت تتمنّاه بأحسن وجه وأرضى طريق ، ولو كانت تعلم ما أراده لها لم تتحزن ولم تتحسّر فليس الذّكر الذى طلبته بأفضل من الأنثى التي أعطتها بل هذه الأنثى خير ممّا كانت ترجو من الذّكور .

يقول صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية « فإن قلت : فَلِمَ قالت إني وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول (أي وما أرادت إعلام الله بذلك) ؟ قلت : قالته تحسّرا على ما رأته من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزّنت إلى ربّها لأنّها كانت ترجو وتقدر أن تلد ولدا ذكرا ولذلك نذرته محرّرا للسدانة ولتكلمها على وجه التحسر والتحزن . قال الله تعالى ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ تعظيما لموضوعها وتجهيلا لها بقدر ما وهب لها منه ومعناه والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور وأن يجعله وولده آية للعالمين ، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئا ولذلك تحسّرت فإن قلت فما معنى قوله تعالى : ﴿ وليس الذّكر كالأنثى ﴾ قلت : هو بيان لما في قوله : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ من التعظيم للموضوع والرّفع منه ومعناه ليس الذّكر الذي طلبت كالأنثى التي أعطيت فمالك تتحسّرين وقد أعطيت أنثى خير من الذّكر الذي كنت تطلبين فليس لتحزنك وأسفك من سبب غير الجهل بقيمة هذا المولود وما أودع فيه من أسرار وعجائب وما سيجريه الله تعالى على يده من عجائب ومعجزات وما سيترتب عن ذلك من تغيير في الأنفس والآفاق وفي المصير البشري جملة

وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

[البقرة : ٤١٥]

فما ينبغي للمؤمن وهو يسير على هدي من ربّه أن يتحسّر على شيء ﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ﴾ [الحديد : ٢٢] . فمّا يفعل الله به وله في المحصّلة النهائية إلّا ما هو أمثل له ... .

ولم تلبث هذه المناجاة من أمّ مريم لربّها أن اورثتها سكينة في القلب ورضى بما قدّر الله لها فبادرت إلى تسمية هذه الوليدة مريم قيل بمعنى العابدة وسألت لها الله أن يكون في رعايتها وذريتها فاستجاب لها ربّها وأنشأها على يد أحد أنبيائه الكرام في محراب العبادة هو أحد أقاربها زكريا ، بعد أن تنازع على تربيتها كبار أحبار المعبد وظهرت على يديها عجائب في الدلائل على صلاحها وتقواها ورعاية الله لها . وأفاض عليها ربّها من صنوف الخيرات ما لفت نظر كافِلَها النبي زكريا ، وعجب لأمرها فسألها عن هذه الخيرات التي استفاضت من حولها فما زادت عن أن قالت (هي من عند الله) بكلّ خشوع وتواضع وإخلاص ممّا أغراه وقد رأى رأي العين خيرات الله ونعمه تفيض أن يتوجّه إلى ربّه المنعم بكل هذه النّعم أن ينعم عليه هو أيضا بما هو في لهفة إليه : أن يكون له وهو الشيخ الهرم ولد يخلفه ويؤنسه حتّى إذا اكتملت ايمانا وصديقيّة

نادتها الملائكة تبشّرها باصطفاء الله لها على نساء العالمين من حوّاء إلى آخر امرأة حتى تقدم عليها السّاعة[٦]. وإن الله طهّرها من الرّجس الذي يغرق فيه قومها وبرّأها مما سيرميها به قومها من الافتراءات لكي تتهيّأ لتلقي أمر الله المباشر « كن » كما تلقّاها الطين الذي جبل عليه أوّل إنسان (آدم) .

﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون ﴾ لكي تتهيّأ لذلك الامتحان العسير أو حى إليها ربّها بطول القيام والرّكوع والسّجود مع المصلّين في المعبد وقد كانت ملازمة لمحرابه[٧] كما أمر النبيون من قبلها ومن بعدها وهم يتهيئون لتلقّي كلمات الله **﴿ ياأيّها المزّمل قم الليل إلاّ قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا إنّا سنلقي عليك قولا ثقيلا ﴾** .

[المزّمّل : ١-٢-٣]

وهكذا تهيّأت لذلك الحدث العظيم لحمل عيسى (كلمة الله وروحه) وتهيّأت بإيمانها وقوّة شخصيتها لمجابهة مجتمع كامل يرميها وهي الطّاهرة المطهّرة في أعزّ ما تملكه أنثى في طهارتها وشرفها .

ولكنها تصبر وتدأب على رعاية ابنها وتربيته وإعداده للأمر

(٦) تفسير المنار ص : ٣٠٠ مجلّد : ٣ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن ص : ٨٣ المجلّد ٢ .

العظيم الذي ينهض به في استنقاذ قومه من وحلهم وسقوطهم وإنّ الاقتران المتواصل في القرآن بين المسيح وأمّه مريم ليست دلالته الوحيدة سلبيّة أي نفي العقائد المنحرفة في عيسى من أنه ابن الله بل له دلالة إيجابية هي تكريم مريم عليها السّلام بل تكريم كلّ إمرأة من خلالها تكريما بما لم تكن النساء يحصلن عليه من شرف خدمة المعبد فقد كانت مهمّة خاصّة بالرّجال[٨] . وكأن النّساء رجس لا يحقّ لهنّ الاقتراب من المواطن الطّاهرة – وتكريما بمخاطبة الملائكة وتلقي الوحي عن الله فكانت أشهر نبية من جنس النّساء وتكريما بتلقي كلمة الخلق المباشر (كن) تلك الكلمة التي خلق بها آدم في أوّل قصّة الخلق فكان خلق عيسى في رحم أمّه بنفس الكلمة ، بنفس الطريقة وتكريما بعد كلّ ذلك بتكفيلها وحدها بتربية رسول من أولي العزم من الرّسل وتشريفا بنسبة عيسى إليها ونسبتها إليه حيث ينتسب غيره إلى الرّجال بينما دعي هو إلى أمّه دون أن يكون في ذلك غضاضة عليه .

نبوة مريم ونبوة النساء :

شغلت هذه المسألة . أذهان كثير من العلماء حتّى جعلوا منها قضية يدور الجدل حولها بين مثبتين ورافضين وكأنّ هؤلاء الرّافضين لنبوّة النساء – رغم أنّهم قلّة – كما ذكر الإمام القرطبي قد استكثروا على النساء هذه المرتبة .. وكأنّ كلّ فضيلة في الرّجال

(٨) كان للنساء مساهمة في تنظيف المسجد في عهد الرسول عليه السّلام .

هي سيئة في حق النّساء كما صرّح بذلك بعضهم[٩] مع أنّ التساوي في النوع الإنساني ذكوره وإناثه أصل لا حياد عنه إلاّ بدليل قاطع . وجلّ ما تعلّق به نفاة النبوّة عن النّساء مجرّد تأويلات للمتشابه من القرآن مثل قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ .

[يوسف : ٨]

وقوله تعالى : ﴿ وأمّه صديقة ﴾ .

[المائدة : ٧٤]

يقول الفخر الرّازي في تفسيره « اعلم أنّ مريم عليها السّلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالا ﴾ . وإذا كان كذلك فإنّ إرسال جبريل عليه السّلام إليها إمّا أن يكون كرامة لها أو إرهاصا لعيسى عليه السّلام أو معجزة لزكريّا عليه السّلام ، ومن الناس من قال أن ذلك كان على سبيل النفث في الرّوح والإلهام والإلقاء في القلب كما كان في حقّ موسى عليه السّلام في قوله : ﴿ وأوحينا إلى أمّ موسى ﴾[١٠] .

أمّا شيخ الإسلام ابن تيمية فقد ذكر أن القاضي أبا يعلى وأبا المعالي وغيرهم أنّه قد انعقد الإجماع على أن ليس في النّساء

---

(٩) نسب بعضهم إلى الإمام علي قوله شر خصال الرّجال خير خصال النّساء .

(١٠) التفسير الكبير للفخر الرّازي ص : ٤٣ جـ٧ طبعة طهران .

نبيّة ، والقرآن والسّنة دلاّ على ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ . وقوله : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرّسل وأمّه صديقة ﴾ ذكر أنّ غاية ماانتهت إليه أمّه الصديقية .(١١) .

وما تمسّك به نفاة النبوّة عن النّساء لاينهض حجّة مقنعة في إثبات ما ذهبوا إليه .

فقد ذهب أكثر من مفسّر إلى أنّ « رجالا » في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالا ﴾ لا تدلّ على الجنس « الذّكور » وإنّما تدلّ على النّوع الإنساني .

يقول صاحب التحرير والتنوير في تفسير هذه الآية ، والرّجال اسم جنس جامد لا مفهوم له وأطلق هنا مرادا به أناسا كقوله ﷺ : « ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » أي إنسان أو شخص وليس المراد به الاحتراز عن المرأة وليس تشخيص الرّجال وأنّهم من أهل القرى لقصد الاحتراز عن النساء ومن أهل البادية ولكنّه لبيان المماثلة بين من سلّموا برسالاتهم وبين محمّد ﷺ حين قالوا : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ وقالوا : ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ أي فما كان محمد ﷺ بدعا

---

(١١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية مجلّد : ٤ ص : ٣٩٦ مطابع الرياض .

من الرّسل حتى تبادروا بإنكار رسالته وتعرّضوا عن النظر في آياته فالقصر (وماأرسلنا .. إلاّ) إضافيّ أي لم يكن الرّسل عليهم السّلام قبلك ملائكة أو ملوكا من ملوك المدن الكبيرة فلا دلالة في الآية على نفي إرسال رسول من أهل البادية مثل خالد بن سنان ويعقوب عليه السّلام حين كان ساكنا في البدو[١٢] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ . يذهب الشيخ بن عاشور إلى أنّ الأصطفاء الأول اصطفاء ذاتي وهو جعلها منزّهة ذكيّة والثاني بمعنى التفضيل على الغير ونساء العالمين نساء زمانها أو نساء سائر الأزمنة . وتكليم الملائكة والإصطفاء يدلاّن على نبوءتها والنبوءة تكون للنساء دون الرّسالة[١٣] .

ويؤكد الإمام القرطبي في جامعه إلى أنّ ظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أنّ مريم أفضل من جميع نساء العالم من حوّاء إلى آخر امرأة تقوم عليها السّاعة فإنّ الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عزّ وجل بالتكليف والأخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء فهي إذن نبيّة

---

(١٢) تفسير التحرير والتنوير : سماحة الأستاذ الإمام الشيخ م . طاهر بن عاشور ، ص : ٦٨ جـ١٣ . الدّار التونسية للنشر .

(١٣) تفسير التحرير والتنوير : سماحة الأستاذ الإمام الشيخ م . طاهر بن عاشور ص : ٢٤٤ ، جـ٣ . الدّار التونسية للنشر .

والنبي أفضل من الوليّ فهي أفضل من كلّ النساء الأوّلين والآخرين مطلقاً . وقد خصّ الله مريم بما لم يؤته أحداً من النساء وكذلك أنّ روح القدس كلّمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة فليس هذا لأحد من النساء وصدقت بكلمات ربّها ولم تسأل اية عندما بشرت كما سأل زكريا ﷺ من الآية ولذلك سمّاها الله في تنزيله صديقة فقال : ﴿ **وأمه صديقة** ﴾ . وقال : ﴿ **وصدقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين** ﴾ . فشهد لها بالصديقية وشهد لها بالتصديق بكلمات البشرى وشهد لها بالقنوت وإنما بشر زكريا بغلام فلحظ إلى كبر سنه وعقامة رحم امرأته فقال أنّى يكون لي غلام وامرأتي عاقر فسأل آية ، وبشّرت مريم بالغلام فلحظت أنّها بكر ولم يمسسها بشر فقيل لها (كذلك قال ربّك) فاقتصرت على ذلك وصدّقت بكلمات ربّها ولم تسأل آية ممّن يعلم كنه هذا الأمر .

وما لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم مالها من هذه المناقب. ولذلك روي أنها **سبقت السابقين مع الرّسل إلى الجنّة** . جاء في الخبر عنه ﷺ : « **لو أقسمت لبررت لايدخل الجنة قبل سابقي أمّتي إلاّ بضعة عشر رجلا منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران** » . وقد يخفّ على من انتحل علم الظاهر واستدلّ بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول الرسول ﷺ : « **أنا سيّد ولد آدم** » وقوله : « **لواء الحمد يوم القيامة بيدي ومفاتيح الكرم بيدي وأنا أوّل خطيب وأنا أوّل شفيع** » . فلم ينل هذا السّودد في الدّنيا على الرّسل

إلا لأمر عظيم في الباطن وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصديقية والتصديق بالكلمات إلّا لمرتبة قريبة دانية ومن قال : لم تكن نبية ، قال : إن رؤيتها للملك كما رؤى جبريل عليه السّلام في صفة دحية الكلبي حين سؤاله عن الإيمان والإسلام ولم يكن الصّحابة بذلك أنبياء والأوّل أظهر وعليه الأكثر – أي أكثر العلماء – والله أعلم[١٤] .

« إنّ أكمل نوع إنساني الأنبياء ثمّ يليهم الأولياء من الصّديقين والشهداء والصّالحين وإذا تقرّر هذا فقد قيل أنّ الكمال المذكور في الحديث « كمل من الرّجال كثير ولم يكمل من النّساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون . » يعني به النبوءة فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السّلام وآسيا نبيّتين وقد قيل ذلك والصّحيح أن مريم نبية لأن الله أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين[٢] .

وأهمّ الأئمة الأعلام الذين تناولوا هذه المسألة بعمق وتوسّع أبومحمّد بن حزم في كتابه – الفصل في الملل والأهواء والنّحل – حيث عقد فصلا خاصّا بعنوان « نبوّة النّساء » ننقل اليك أخي القارىء أهمّ ماجاء فيه . ولقد بدأ أبومحمد رضي الله عنه بحثه في المسألة بتعجّبه من إثارة هذه المسألة في قرطبة بينما لم تشهد مدائن

---

(١٤) الجامع لأحكام القرآن ص : ٨٣-٨٤ جـ٤ .
(١٥) الجامع لأحكام القرآن ص :

الإسلام الأخرى جدلا مماثلا يقول : « هذا فصل ما حدث التنازع العظيم فيه إلا عندنا بقرطبة وفي زماننا فإنّ طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبّوة في النساء جملة وبدّعت من قال : بذلك وذهبت طائفة إلى أنه قد كان في النّساء نبوّة وذهبت طائفة إلى التوقّف في ذلك .

وينطلق ابن حزم في حسم النّزاع من تحليل معنى النبوّة وهي مأخوذة من الأنباء وهو الإعلام فمن أعلمه الله عز وجل بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبّئا له بأمر ما فهو نبي بلاشك وليس هذا من باب الإلهام الذي هو طبيعة لقوله تعالى : ﴿ وأوحى ربّك إلى النّحل .. ﴾ بل الوحي الذي هو النبوّة « قصد » من الله تعالى إلى إعلام من يوحى إليه .. علما ضروريّا إمّا بمجيء الملك إليه وإمّا بخطاب يخاطب به في نفسه دون وساطة فإن انكروا أن يكون هذا هو معنى النبوّة فليعرفونا معناها فإنّهم لايأتون بشيء أصلا فإن كان ذلك كذلك فقد جاء القرآن بأنّ الله عزّ وجل أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى فبشروا أمّ اسحاق باسحاق ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها باسحاق ﴾ ومن وراء اسحاق يعقوب ﴿ قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا : أتعجّبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبيّ بوجه من الوجوه ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أمّ عيسى عليهما السّلام وقال لها: ﴿ إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاما زكيّا ﴾ .

فهذه نبوّة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى إليها ووجدنا أم موسى عليها الصّلاة والسّلام قد أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليمّ فصحّ يقيننا أنّ الوحي الذي ورد لها في إلقاء ولدها في اليمّ كالوحي الوارد على إبراهيم في الرؤيا في ذبح ولده . **فصحّت نبوّتهنّ بيقين** . وقد ذكر من الأنبياء عليهم السّلام في سورة كهيعص ذكر مريم في جملتهم ثمّ قال عزّ وجل : ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممّن حملنا مع نوح** ﴾ .

وهذا هو عموم لها معهم لايجوز تخصيصها من جملتهم وليس قوله تعالى وأمه صديقة بمانع من أن تكون نبية فقد قال تعالى : يوسف أيها الصّديق – وهو مع ذلك نبي رسول . وهذا ظاهر وبالله التوفيق . ويلحق بهنّ عليهن السّلام في ذلك امرأة فرعون . يقول رسول الله ﷺ « **كمل من الرّجال كثير ولم يكمل من النّساء إلا مريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم إمرأة فرعون** » والكمال في الرّجال لايكون إلاّ لبعض المرسلين لأنّ من دونهم ناقص عنهم بلا شك وكان تخصيصه ﷺ مريم وأمرأة فرعون تفضيلا لهما على سائر من أوتين النبوّة من النّساء بلا شك(١٦) .

وبعـــد ...

ماذا يستفيد المسلم اليوم من إعادة طرح قضية نبوّة المرأة وقد

---

(١٦) الفصل في الملل والأهواء والنحل مجلّد : ٣ دار المعرفة بيروت – لبنان ص : ١٧–١٨–١٩ . ابن حزم .

تم ختم النبوّة بظهور النبي الخاتم محمد ﷺ . أليس الخوض في هذه المسألة جملة ضربا من الجدل المبدّد للطاقة ؟ أليس ذلك هو السّبب من وراء انصراف الإسلاميين المعاصرين عن هذا البحث ؟ إن الأمر قد يبدو لبادىء الرّأي كذلك وما هو كذلك فإنّ أمّة مثل أمتنا لايزال التراث (إنتاج الماضي) يمثّل إحدى المؤثرات الفعالة في واقعها بعيد جدا **أن يحدث فيها أيّ تحوّل ثوري دون تمحيص جادّ لذلك التراث** . يمتحن مفاهيمه ليدعم منها ما كان تعبيرا عن الحقيقة الإسلامية المطلقة ويوظفه في عملية التحوّل الثوري ويوهن ويسفه ما كان ثمرة لقصور عصر من العصور وتخلّفه وانحطاطه ولكنّه في غياب النقد الجاد ظلّ يعامل كجزء من الحقيقة الإسلامية المطلقة في قدسيتها وأحقيتها في توجيه العقول والمشاعر والأذواق والمسالك والتنظيمات .. **وإنّ من أهمّ المواضيع التي لازال الإسلاميون يتعاملون معها من خلال الخلط بين الحقيقة الإسلامية والحقيقة التراثية : موضوع المرأة** فيتعرّفون على الموقف الإسلامي في هذه القضيّة وغيرها بالرّجوع إلى كتب التفسير والفقه آخذين محتوياتها وكأنّها ناطق رسمي باسم الحقيقة الإسلامية المطلقة فيتحوّل التراث من كونه عامل تثوير للواقع في اتجاه الإسلام إلى معوق أساسي دون عملية التحوّل تلك وتذهب جهود الدّعاة أو كثيرا منها هدرا . **بل يتحوّل عملهم إلى عامل استمرار للماضي في الحاضر** ودعم لهذا الحاضر الذي نتألّم من استمراره ونطمع إلى تغييره ويأخذنا الوجوم والاندهاش من صلابته وتأبيه عن كلّ تحوّل .

الخلاصـــــة :

إنّ ما انتهينا إليه من تأملات حول النّصوص الواردة في هذه القضية وما دار حولها من جدل يتلخص في :

• إنّ الجملة المختصرة – وليس الذّكر كالأنثى – لا علاقة لها البتة بالمعنى الذي حملت عليه تعسّفا من تفضيل الذّكر على الأنثى فهي لاتخرج في السياق الذي وردت فيه عن الدلالة على إحدى المعنيين التاليين .

أ – الاختصاص : فليس يصلح أحد الجنسين لكلّ مايصلح له الآخر . فقد يكون أحدهما مؤهّلا لوظائف لم يؤهّل لها الآخر . ممّا يندرج ضمن قاعدة تقسيم العمل في مرحلة من مراحل تطوّر المجتمع .

ب – التسرية : على امرأة عمران وإذهاب ما داخلها من غمّ بولادة أنثى وقد أنذرت وليدها لمهمّة دينيّة كانت العادة تقتضي أن يكون ذكرًا فجاء التصحيح الإلهي لتلك المعتقدات الاجتماعية البالية من خلال توجيه الخطاب الإلهي إلى تلك الأم الأسيفة ما كان لك أن تأسي وتحزني فقد أنعم الله عليك بخير ممّا كنت تأملين وتتمنين . **معيدا الاعتبار لا لهذه المولودة فحسب بل للأنثى كلّ أنثى من خلال ذلك .**

•• إنّ الثورة التي فجّرها الإسلام والجهاد المرير الذي خاضه

من أجل إعادة الاعتبار الإنساني في العدل والحرية والمساواة للمستضعفين من الرّجال والنساء والولدان ممّن سحقتهم مجتمعات الإقطاع والإستبداد والتي كان لها الأثر الفعّال والعميق في تاريخ حركة التحرّر على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومن ذلك حركة التحرّر النسوية فقد ذهبت الثورة المضادة بكثير من رحم تلك الثورة وآثارها في الواقع وصحب ذلك ودعّمه جهود تنظيرية لتكريس الحيف الاجتماعي والاستبداد السياسي والفوارق على أساس الجنس واللّون والطبقة . كلّ ذلك باسم الإسلام. باسم القرآن والسنة وإجماع العلماء . وفي هذا الإطار ثار الجدل حول كثير من القضايا همّشت رسالة الإسلام وثورته الفكرية والاجتماعية مثل قضية نبوّة المرأة رغم أنّ اعتقاد الجميع في استحالة ظهور نبوّة جديدة رجالية أو نسوية ممّا يؤكد الوظيفة الاجتماعية لهذا الجدل في تهميش دور المرأة من وراء التأكيد على عدم تأهّلها الطّبيعي لذلك التكريم والشرف .

وهو تأكيد لايستند إلى نصّ قاطع من كتاب أو سنّة ممّا احتاج معه المدافعون عنه إلى ادّعاء انعقاد الاجماع على ذلك وهو ادّعاء قامت الحجج قديما وحديثا على نفيه بل إن أكثر العلماء على خلافه كما أكّد الإمام القرطبي في تفسيره . ممّا يجعلنا .. ولئن سلّمنا نظريا بحجّية الإجماع كمصدر من مصادر تجديد الشريعة نتوقّف كثيرا للتثبت من إدعاء انعقاده حقيقة في مسألة من المسائل ..

وتأكيد الإمكان التاريخيّ لحصول التنبؤ النسائي رغم اعتقاد نفي ذلك الإمكان بعد ظهور النبي الخاتم ﷺ فضلا عن كونه يمثل في ذاته نفيا لتحريف الحقيقة الإسلامية بحمل دلالات كثيرة في مجال ثورة الإسلام وأبعادها الإنسانية في تحرير المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان لأنّ أوّل اضطهاد – كما يقول رجاء غارودي عرفه التاريخ هو اضطهاد النساء مما يجعل نسف الأسس التي يقوم عليها ذلك الاضطهاد خطوة ضرورية لنسف كل اضطهاد آخر .

ومن دلالات ذلك التأكيد اتجاه المرأة التي تعتقد أنه ليس في بنيتها الطّبيعية ما يحول بينها وبين بلوغ درجات الكمال الإنساني والتكريم الإلهي (النبوّة) . اتّجاهها نحو اكتشاف نفسها لا باعتبارها مجرّد جسد هو كلّ رصيدها في معركة الحياة ممّا يقتضيها العكوف على التفنن في إخراجه وتشكيله بحسب متطلبات السّوق الرّجالي بل باعتبارها مشروعا إنسانيا يحمل امكانيات هائلة للترقي والكمال ، وهو مشروع إنّما يتحقّق عبر النّضال الدّائب والجهاد النّاصب والكدح المرير والدّم ضدّ قوى الانحدار والتهابط والشر والاستبداد على المستوى النفسي والاجتماعي لتحقيق مجتمع العدل والمساواة والتحرّر تمثل أقصى ما يمكن أن تمثله من الكمالات الإلهية والأسماء الحسنى في هذه الحياة الدّنيا .. إنّ مجال الترقي مفتوح أمام الجميع رجالا ونساء عربا

وعجما ، مفتوح على مصراعيه بدون أى عائق من نسب أو لون لأنه لئن كانت النبوّة قد تمّ بنيانها فإنّ أرثها وهو رصيد هائل من القيم والكمالات أمانة فى عنق الوارثين من الرّجال والنساء ... فليس على الجميع إلاّ أن يحاولوا وأن يضعوا أنفسهم في الطريق الصّاعد .. زادهم اقبال جاد على الله ﴿ يا مريم اقنتي لربّك واسجدي واركعي مع الرّاكعين ﴾ نعم يا مريم . إنها تنادى باسمها من الملأ الأعلى كما كان النبي عليه السّلام يدعو نساءه وبناته ونساء المسلمين باسمائهنّ — على ملأ من الناس — دونما أي تحرج أو تأثم أو استخدام للإشارة إيحاء بتخلّق زائف وكأنّ المرأة عورة كلّها حتى اسمها .

يا مريم كلّ زمان ومكان يا أختاه نداء الحق والسمو والجهاد والثورة من الملأ الأعلى يناديك : أقنتي لربّك وأقبلي عليه بإخلاص تستمدين منه القوّة لتحطيم أغلال القرون .. أغلال الإقطاع والاستبداد ، وأغلال استغلال رأس المال ، وأغلال أيديولوجيات التخلّف والتبعيّة والاستعمار التي تريدك جسدا منمّقا مزخرفا قابلا للتشكل والإستمتاع والإستقلال كما يشاء الطغاة والرأسماليون .. فيا مريم .. يا أخيّة حذار من الوقوع في شباكهم وانضمي إلى قافلة الإيمان وكتيبة الثورة والرّفض . رفض الخضوع إلاّ للحقّ تبارك وتعالى .. فاقنتي لربّك واركعي مع الرّاكعين .

الحلقة الرابعة

إن كيدهن عظيم

الكيد في اللغة المكر والاحتيال والاجتهاد والتدبير والمعالجة وبه سميت الحرب كيدا ولقد ورد في القرآن مرّات كثيرة منسوبا إلى الإنسان والشيطان للرجال والنساء للصالحين والطالحين بل ورد منسوبا لله في معرض المقارنة بين كيد المخلوقات وخالقهم فليس الكيد في ذاته ذميما بل منه ما يحمد ومنه ما يذّم بحسب الوسائل

المستخدمة في الاحتيال للتغلب على الصّعوبات للوصول إلى الهدف وبحسب نبل هذا الهدف أو وضاعته .

وفي سورة يوسف نفسها ورد الكيد منسوبا إلى أخوة يوسف ﴿ لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيدا ﴾ كما جاء وصفا للتدبير الإلهي . ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي كذلك دبّرنا له هذا التدبير الدقيق[1] . ولقد ورد هذا التأكيد في القرآن ﴿ إن كيدكنّ عظيم ﴾ . في سياق العرض القرآني لسلسلة الامتحانات والمحن التي عرّض الله سبحانه عبده يوسف لها ضمن خطة إعداده لمنصب القيادة السياسية والدينية في مصر فبعد محنة عداء أخوته له وكيدهم له ورميه في الجب فنجاته فوقوعه في محنة الاستعباد وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم[2] . حتّى إذا بلغ أشده واستوى رجولة وأدبا فتن بافتتان سيدته به فتنة عظيمة وتوسلها بمختلف ما تحتال به مثيلاتها للوصول منه إلى إطفاء نيران أشواقها ولكنّه كان يصدّها كلّ مرّة بلطف وتجاهل دعواتها حتى نفذ صبرها وجُرح كبرياؤها العنيد فقررت حمله على ما تريد بأي ثمن ﴿ وغلقت الأبواب وقالت

---

(١) المرأة في القرآن للعقاد ص : ١٦-١٧ .

(٢) جزء من حديث الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السّلام [اخرجه البخاري وأحمد] .

هيت لك ﴾ وقد أحكمت غلق الأبواب وقالت ■ تهيّأت لك فهلمّ بادر فساورت الشاب الذي يفيض رجولة وحيوية سورة ضعف ﴿ **ولقد همّت به وهمّ بها** ﴾ ولكنّه تاب سريعا إلى ربّه واستعلى على نوازعه واستعصم بإيمانه وعفته ﴿ **لولا أن رأى برهان ربّه** ﴾ فما كان لينجو من الانزلاق في ذلك الموقع الرهيب ﴿ **لولا أن رأى برهان ربّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين** ﴾ .

وما كان الله ليترك عبدًا له مطيعا وحيدا يواجه اندفاعات الجسد ومكايد الشيطان ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا** ﴾ وليس من سبيل للتخلّص من ضغط مثل ذلك الظرف العصيب الذي يحيط به إلا النجاة بالانصراف والنأي بعيدا عن محيط الإغواء فاندفع للنجاة بنفسه ولكن السيدة المطعونة في كبريائها الأنثوي ومكانتها الاجتماعية من هذا العبد المتمرّد على نوازعه وعلى وضعه الاجتماعي الذي يقتضي منه الطاعة والخدمة تعْدو في حالة عصبية في أثره وتمسك بتلابيبه تجذبه من قفاه لمنعه من الخروج فتمزّق ثوبه . ﴿ **واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر** ﴾ وفي هذه اللحظة يدخل الزوج سيد مصر ويفتح عينيه مشدوها على مشهد السيدة الوقورة في حالة عصبية تعدو في أثر فتاها ﴿ **وألفيا سيدها لدى الباب» فتلجأ إلى الحيلة والكيد لتبرير موقفها وتطبيعه وإخراجه مخرجا لائقا يجعلها في وضع المرأة الشريفة الوديعة التي تتعرّض لعدوان عبد طالما أحسنت إليه** ﴿ ماجزاء من أراد

بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ ورغم أنّها وضعت نفسها في وضع المعتدي عليها ولكنّها لم تحدّد نوع العدوان مما يوحي بأنّ المسألة تتعلّق بخلاف بسيط بين السيدة وعبدها واجهه العبد بالعنف ممّا يستحقّ معه السجن أو التأديب وفي ذلك تبرير ذكيّ للموقف وابعادًا لمسألة الخيانة ومحاولة اخرى للضغط على يوسف ووضعه في ظروف قاسية املا في تليين عناده ! ولكن يوسف يكشف بوضوح عن حقيقة الموقف للدّفاع عن براءته **﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾** وازاء الغموض المحيط بالموقف يتدخل قريب للعائلة مستخدما بعض القرائن لحسم الموقف **﴿ وشهد شاهد من اهلها ان كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصّادقين ﴾** والمسألة ظاهرة ولكن منهاج التحقيق يقتضي الحكم لا على اساس الاقتناع الشخصي بل على اساس قرائن الواقع ويحتمل ان يكون الشاهد اكتفى بتحديد أسلوب اكتشاف الحقيقة في هذا الموقف ثمّ تولى السيد « العزيز » التحقيق بنفسه وإعلان النتيجة **﴿ فلمّا رأى قميصه قدّ من دبر قال إنّه من كيدكنّ إن كيدكنّ عظيم ﴾** ويلفت الحكم أو الزوج بحسب التأويل إلى طرفي الحدث يوجه إلى كلّ منهما التوجيه المناسب لمحاصرة الحدث وعدم تهويله وكأن شيئا لم يحدث مما هو معتاد في الأوساط المترفة حيث تفقد قيم العفّة والشرف كلّ إعتبار حقيقي عدا الاعتبار المظهري تجنّبا للفضائح فيحسن بيوسف أن ينسى هذا الحدث **﴿ يوسف اعرض عن هذا ﴾** وأنت أيتها المتلبسة بفعلتك

لقد اخطأت فتوبي ﴿ واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين ﴾ ويسدل الستار على هذا المشهد وذلك معتاد في معالجة مثل هذه الحوادث في أوساط الوجاهة والمال[٣]. على إنّه يمكن ملاحظة ما يلي :

١ – إنّ الصّلاح والتقى بل النبوّة ذاتها لا تعدم في الإنسان أحاسيسه ونزعاته وإنّما تحلّه منها محلّ السيد لا العبد . وشرف الإنسان وفضله ليس في إعدام احاسيسه لأنه بذلك يكون ملكا لا يحمد منه سلوك أو يذمّ . يقول الإمام الزمخشري : « فإن قلت كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها قلت المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقر منه ميلا يين الهمّ والقصد إليه وكما تقتضيه صورة لكل الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويردّ بالنّظر إلى برهان الله المأخوذ على المكلفين باجتناب المحارم ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمّى همّا لشدّته كما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع كان استعظام الصّبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته ولو كان همّه كهمّها عن عزيمة لما مدحه الله بأنّه ﴿ من عباده المخلصين ﴾[٤] فليس الهمّ أو الميل إلى الجنس الآخر جريمة أو إثما في حدّ ذاته فإنّما جعل هذا الميل في الإنسان

(٣) في ظلال القرآن ص : ١٩٨٣ [ط . دار الشروق] .

(٤) الزمخشري – الكشاف جـ٢ ص : ٣١١ (ط : طهران) .

لآداء وظائف أساسية على المستوى النفسي والاجتماعي فمن لم تراوده هذه الميول فما هو بالشخص السويّ .

إنّ ما يعاب على الإنسان وقوعه تحت سيطرة ميوله فتورده المهالك وتدوس كلّ قيمة وعرف .

فلماذا استعظم كثير من المفسّرين على هذا الشاب التقي مشاعره الإنسانية وهمّه بامرأة قد استكملت جمالا ونضجا ولكنّه يجد من إيمانه وتقاه قوّة تحجزه عن الاستجابة لما لم يأذن الله به أليس ذلك هو الهدف الأسمى للتربية الإسلامية امتلاك الإنسان زمام نفسه وتحرّره من الضرورة . أم إن الكيان الديني لا يتحقق إلا باجتثاث تلك الميول من جذورها ؟ إنّها التصوّرات الاشراقية والنصرانية وليس شيئا آخر وراء الحرج الذي دفع الكثير من العلماء والمفسّرين إلى ركوب المركب الصعب في تأويل بعض النّصوص من أجل دفع شبهة النقص المتمثلة في همّ يوسف وميله لامرأة العزيز ممّا يتصادم في تصوّراتهم التي لم تتطهّر جيّدا في الطهور الإسلامي مع عصمة النبوّة وكأن العصمة أو الكمال الإنساني عندهم هو تخلّص من الإنسانية جملة فأين شرف المكابدة والمدافعة والابتلاء والنصر اذن ؟ فضلا عن إن « يوسف لم يكن قد تنبأ أنذاك »[٥] .

يقول الرّسول ﷺ يقول الله تعالى : « إذا همّ عبدي بحسنة

---

(٥) ابن عاشور .

فاكتبوها له حسنة ...[٦] الخ . الحديث في الصحيحين .

٢ - ورغم أن الكيد ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ في هذه الحادثة قد صدر من إمرأة واحدة معينة فإن الزوج أو الحكم الشاهد نسبه إلى جنس النساء تخفيفا من وقع الفعلة وتهوينا لها وضربا من التبرير على اعتبار أن الاحتيال وتمويه الحقائق والاغراء والاغواء ليس خلقا خاصّا بهذه المرأة حتى تلام عليه بل هو في كلّ النساء طبع وحيلة وما يلام الإنسان على ما في طبيعته من خلال لأنّه مقهور عليها لا يملك ازاءها ردّا . ثمّ إنّ المصائب إذا عمّت قد تهون : من قبيل ما ذكرته الخنساء وهي تعزي نفسها في أخيها .

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

إنّها اللباقة في مواجهة الحدث الذي يثير الدم في العروق والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله فإنّه لا يسوء المرأة أن يقال لها ﴿ إنّ كيدكنّ عظيم ﴾ فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم[٧] .

فليس إذن في ما اورده القرآن حكاية للحدث على لسان الزوج أو الشاهد الحكم دليل يخرج بهذه المقالة ﴿ إنّ كيدكنّ

(٦) حديث في الصحيحين .

(٧) في ظلال القرآن ص : ١٩٨٣ .

عظيم ﴾ من كونها كما هو سياقها تبريرا وتهوينا لموقف خاص هو تورط امرأة العزيز إلى إعتبار هذه المقالة حكما إلاهيا قاطعا محدّدا للطّبيعة الخاصّة بالنساء كلّ النساء في كلّ زمان ومكان وليس في حكاية القرآن لهذه المقالة دليل على إقرارها يقول - ابن المنير الاسكندري المالكي - وامّا هذه الآية فكيد النساء فيها من قول العزيز ولكن حكاه الله تعالى عنه فيحتمل حكايته عنه أن يكون تصحيحا له ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه[٨] . ولقد عبّرت كلمة العزيز ﴿ إنّ كيدكنّ عظيم ﴾ حكما إلاهيا قاطعا في طبيعة النساء واختصاصها بالاحتيال والدهاء والخبث مع أنّه لا دليل على اقرار القرآن لهذه الحكاية ولم يأت في الكتاب والسنة ما يدعمّ هذا التأويل ويميّز شخصية المرأة كلّ امرأة بالخبث والدهاء والادعاء بالباطل والإغواء فالآيات التي تتحدّث عن الطّبيعة الإنسانية لا تميّز بين ذكر وأنثى مثل ﴿ ونفس وما سوّاها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دسّاها ﴾ ﴿ وإن ليس للإنسان إلّا ما سعى ﴾ ﴿ وهديناه النجدين ﴾ الخ فالاستعدادات للخير والشرّ تشكل خاصية للطبيعة الإنسانية وظروف التربية والمجتمع تنمّي هذا الاستعداد وذاك يبقى للفاعل قدر من الحرية في تحمّل تبعات اعماله . هذا الاعتبار اتُّخذ سوطا في يد الكثيرين لجلد ظهور النّساء بمناسبة وغير مناسبة بالتلويح إلى فعل

---

(٨) من كتاب « الانصاف فيما تضمّنه الكشاف من الاعتزال ص : ٣١٥ ج : ٢ . ط : آنتشارات آختات طهران .

النّساء وخاصّة امرأة العزيز بل والتصريح احيانا بأنّهن جميعهنّ مثلها لايؤمن على شيء وكما حملت النساء في كلّ زمان تبعات الخطيئة الأولى حمّلن مسؤولية امرأة العزيز ، فغدت المرأة لا شيطانا فحسب بل هي اشدّ دهاء منه حتّى لقد قال جيل من العلماء أيّهما أشدّ كيدا المرأة أم الشيطان ؟؟ فحكى بعضهم عن نفسه « أنا اخاف من النّساء اكثر ممّا اخاف من الشيطان !! لأنّ الله يقول إنّ كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنّساء ﴿ إنّ كيدكنّ عظيم ﴾[9] فعقب عليه آخر « بانّ كيد الشيطان هنا من قول الله غير محكي وأما كيد النّساء فهو من قول العزيز وايضا فإن الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهنّ مستفاد من الشيطان ووسوسته وتسويله »[10] ويؤكّد مفسّرا « إنّما كيد النسوان بعض كيد الشيطان »[11] والمقارنة بين كيد المرأة والشيطان بقطع النّظر عن الجدل الحائر حول أيّهما أكثر دهاء وطيشا له دلالته في الكشف عن تصوّر محدّد لطبيعة المرأة متميّزة تماما عن طبائع الرّجال طبيعة لئن لم تكن متمحضة للشر والفساد والخيانة والانحطاط والمكر فذلك هو الشأن الغالب عليها بل لقد نسبت من غير تحقيق كاف إلى بعض الأصحاب الكرام كلمات في هذا المعنى : « المرأة شرّ كلّها وشرّ ما فيها إنّه لابدّ منها »[12] . وهو تصوّر مناف ومصادم للثورة

(٩) الزمخشري في الكشاف ص : ٣١٥ ، جـ٢ .
(١٠) حاشية الكشاف من نفس الصفحة .
(١١) المنار ص : ٢٨٨ .
(١٢) ينسب هذا الأثر للإمام علي كرّم الله وجهه .

الهائلة التي احدثها الإسلام في تحرير العرب والإنسانية كافة من عقلية الإستبداد والطغيان والسّيطرة والاستعمار بمبرّرات جنسية أو اقتصادية أو غيرها ولكن الثورة المضادة ابت إلاّ أن تثأر بالإسلام وتلبس ثوبه وتطعنه من خلف من خلال تفشيها في تراثنا في التفسير والفقه والأدب الفصيح والشعبي وفي عاداتنا وتقاليدنا ولا تزال تفعل مفعولها في إخماد الثورة الإسلامية .

٣ — وعلى فرْض التسليم بأنّ كيد النساء أي تدبيرهنّ واحتيالهن وبراعتهنّ في التوصّل إلى اهدافهنّ هي اعظم من مثيلاتها لدى الرّجال فليس ذلك في حدّ ذاته خسة أو ثلمة في شخصية المرأة إنّ دلالة ذلك أن المرأة أوتيت فعالية كبيرة وحيوية عظيمة وذكاء وقادا وصبرا مرابطا وثباتا واصرارا كبيرين في التوصّل إلى الهدف الذي تحدّده لنفسها لايصرفها عنه شيء .. ويبقى منهاج استخدام هذه الطّاقة الهائلة لدى كل امرأة تابعا لنمط تربيتها ولمجموعة الرؤى والتصوّرات التي تعمّر فؤادها فيكون لها الأثر الفعّال والدّور الريادي في تنوير المجتمع ودفعه في طريق التطوّر والبذل والفداء توصّلا إلى المثل الأعلى للمجتمع وتكون مدمّرة ماحقة إذا لم يتجاوز المثل الأعلى للمجتمع مستوى النشاط الغريزي فتندفع المرأة وراء كلّ تافه خسيس شأن المجتمع كله ولقد ألمح بعض المفسرين بفطنة كبيرة إلى هذا القانون لدى حديثه عن كيد النّساء ولئن جعل الكيد خاصية كلّ النساء فقد خصّ صنفا معينا منهنّ وهنّ ربّات القصور .. يقول : « ولربّات القصور منهنّ القدح المعلى

من ذلك لأنهن أكثر تفرّغا له من غيرهنّ »[١٣] . فلئن كان الدّافع الجنسي من أعمق الدوافع في شخصية الإنسان رجلا وأنثى إلاّ إنه في حالة خلوّ النفس من مثل أعلى من إعتقاد مهيمن على الشخصية معبّىء لقواها للنضال من أجل تحقيقه يغدو وحشا ضاريا وامرا مطاعا وقوّة دفع جبّارة للشخصية في طريق الانهيار والتمزّق والتحلّل والتهالك على الرّخيص من اللذات والتافه الزائل من المتع والزينة . إنّه من الطّبيعي أن تقع امرأة العزيز ومثيلاتها من ربّات القصور ممن لا يفقهن من الحياة إلا الاستمتاع والتهيؤ له والمنافسة عليه وتوفير أجوائه ووسائله وكأنّ بهنّ ظمأ لا يرتوي إلى اللذة يتهالكن عليها ويتصارعن ويتآمرن دائسات في طريقهن كلّ عقبه من خلق ودين وعرف يملأن بذلك فراغ وجودهنّ . ولكن أنّى لكادحة في الريف أو في المصنع أو في المدرسة أو في أية مؤسسة اجتماعية أو في قعر بيتها ، تمضي سحابة يومها وشطرا من ليلها في البحث عن متبلغ لها ولأسرتها ، فتذوي ليورق من حولها جيل جديد وتشقى ليسعدوا وتجاهد في دفع الحياة من حولها صوب الأعلى ، ولا تغفل عن تثقيف فكرها والوعي بالأوضاع الاجتماعية والسياسية من حولها، فلا تتردّد في الاستجابة لداعي الدين والوطن لتناضل على جميع المستويات. فهل يتصوّر أن يكون كيد هذه الكادحة مشابها لتلك المترفة اللاهية !! ..

---

(١٣) المنار ص : ٢٨٨ جـ١٢ .

الحلقة الخامسة

حب النساء

﴿ زُيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبّئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربّهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهّرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾ .

وردت هاتان الآيتان في سياق تربية الجماعة المسلمة وإعدادها لمواصلة أدائها لدورها في تحرير البشرية وذلك يقتضي كفاحا لايهدأ لتحقيق التحرّر الذاتي والاستعلاء على الضرورة والحذر وهي تعيش مع الناس وتعمل على تحريرهم ، أن يشغلها مايشغلهم من الإهتمامات والمطامع العابرة واللّذات القصيرة عن دورها الرّسالي الرّفيع وبما يخدم ذلك التصوّر ويحقّقه في واقع الحياة منهاجا لها ، ويمدّ الرساليين بمزيد من طاقات التحرّر والتّحرير ويهيؤهم لمستوى أرفع من اللذات الروحية والمادية أعمق وأدوم .

﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربّهم جنّات تجري من تحتها الأنهار .. ﴾ .

إنّ أهمّ العوامل المحدّدة لمصير مجموعة تجاه قضية الحضارة سواء من حيث اكتسابها أو المحافظة عليها ، أو العجز عن اكتسابها أو المحافظة عليها بعد اكتسابها هو الطريقة التي تتعامل بها مع دوافعها الفطرية ورغباتها الغريزية الرّغبة في الجنس الآخر والبنين والمال وألوان الثراء والترف .

وقد أمدّنا تاريخ البشرية بسجلّ حافل من التجارب المتنوعة في

التعامل مع تلك الدّوافع فعلى حين ظلّت شعوب - بحسب تعبير مالك بن نبيء - تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة، المرحلة البدائية التي لا تكاد تخضع فيها الدّوافع الطبيعية لأية فكرة تتجاوز هدف الاشباع تمكّنت شعوب أخرى بفضل هيمنة بعض الأفكار أو القيم والمبادىء على كيانها النفسي والجسدي من تعبئة طاقاتها وتوظيفها في تحقيق ما ترسمه تلك المبادىء من أهداف فتتحول الإرادات المتفرّقة إلى إرادة واحدة وتتحرّر الطاقات الكامنة فتوجّه إلى الإبداع والغلبة في شتّى المجالات .. حتّى إذا فقدت تلك المبادىء سيطرتها على الدّوافع وتوظيفها فاتّجهت إلى الإشباع كغاية للحياة أذنت شمس الحضارة بالمغيب . وقد يأخذ الإنهيار الحضاري لا شكل تحرر الدّوافع من أثار الفكرة وإنّما شكل القمع وذلك في صورة تسلّط تصوّر معيّن للحياة يقمع الدّوافع الحيوية ويضيّق عليها المنافذ ويحقّرها فيتباطؤ النشاط الحيويّ ويتراخى وتتثاءب الحضارة وتذوي زهورها وتتساقط أوراقها .

إنّ التحدّي الكبير هو كيف نفجّر الطاقات الحيوية ونوظفها في ترقية الحياة وتطويرها صُعُدا في طريق التكامل المستمرّ والسعادة العظمى دون قمع يورث الخنوع والإنكماش والاستكانة والعجز أو تفلّت يورث التمزّق والدّمار ؟ ..

ذلك هو المنظور الفكري التربوي الحضاري الذي تنزّلت وتتنزّل فيه هذه الآية بالأمس واليوم وغدا .

فقد نزلت هذه الآية في بيئة تتوزّعها في تصريف الدّوافع

تصوّرات تتراوح بين: تراث مسيحي يحقّرها ويحطّ من شأنها ويدفع الأخيار إلى التطهّر من أدرانها حتى إذا غلب الإنسان على أمره فاستجاب لندائها، فعل ذلك كارها ناقما على نفسه، فما تورثه تلك اللذة غير غصص الذنب والاحتقار يتجرّعها.. وكيف لا تنمو تلك المشاعر في ظلّ فكرة الخطيئة الأولى واقترانها بحوّاء التي غدت رمزا للخطيئة وأحبولة للشيطان، الشّيطان الذي يزيّن للإنسان الإقبال على الزّينة زينة المرأة والدّنيا والرّفاه، وكلّها أدوات يصدّ بها الشيطان ضحاياه عن عبادة الله!!

وبين تصوّرات يهودية أو وثنية لايحرّكها للنشاط غير الحرص والكنود على إشباع دافع من الدّوافع، الجنس، المال، التكاثر، تنزّل الوحي الإسلامي بموقف جديد لا يحقّرها ولا يحرمها.

﴿ **قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾.

[الأعراف: ٣٢]

ولا يؤلّهما ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلاهه هواه** ﴾.

[الجاثية: ٢٢]

وإنّما يحرّرها من تلك التصوّرات جميعا واضعا إيّاها ضمن برنامجه في إنعاش الحياة والمحافظة عليها وترقيتها.. فلها إذن دور أساسي في الكيان النفسي والجسدي الفردي والاجتماعي والإنساني: ومن ثمّ فهي عميقة في هذا الكيان..

« ولمّا كانت هذه الرّغائب والدّوافع طبيعية وفطرية ومكلّفة من قبل البارىء جلّ وعلا أن تؤدي للبشر دورا أساسيا في حفظ الحياة وامتدادها ورقيّها ، فإنّ الإسلام لا يشير بكبتها وقتلها ولكن بضبطها وتنظيمها وتخفيف حدّتها واندفاعها ، وإلى أن يكون الإنسان مالكا لها متصرّفا فيها ، لا أن تكون مالكة له متصرّفة فيه ، وإلى تقوية روح التسامي فيه والتطلّع إلى ما هو أعلى »(1) .

وفي المنظور الإسلامي إذن ، لا تمثّل هذه الدّوافع بذاتها في بنيان الشخصية نقصا وشرّا يبحث عن فاعلهما كالشيطان مثلا – كما ذهب إلى ذلك بعضهم – وإنّما هي مقوّمات أساسية في التركيب الإنساني جعلت – ضمن البرنامج الإلهي لتحقيق وظائف أساسية كالبقاء والنمّو والترقي ، ومايبقى للكفاح الإنساني والكدح والابتلاء والصّراع والترقي من معنى بدونها ، ومن ثمّ ووفق هذا المنظور لا حاجة في تفسير فاعل التزيين « زيّن » إلى عزوه إلى الشيطان تخلّصا من حرج نسبة ذلك إلى الله بل ما كان ليثار جدل كبير حول فاعل التزيين بين المفسّرين لولا تسرّب شوائب تصوّرات غنوصية نصرانية تضع كل دافع ورغبة للتمتع في قفص الإتّهام وكأن ترقي الإنسان وتطوّره الروحي ينبغي أن يتمّ حتما بقمع تلك الدّوافع أو اجتثاثها اجتثاثا إذا أمكن .. ، تسرّبها إلى رحاب الفكر الإسلامي عند احتكاك الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات ..

---

(1) الظلال جـ3 ص : 383 ، دار الشروق .

يقول القرطبي : « واختلف الناس من المزين فقالت فرقة : الله زيّن ذلك وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكره البخاري وفي التنزيل ﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ . وقالت فرقة المزين هو الشيطان وهو ظاهر قول الحسن فإنّه قال من زيّنها ، ما أحد أشدّ لها ذمّا من خالقها . فتزيين الله تعالى إنّما هو بالإيجاد والتهيئة للإنتفاع وإنشاء الجبلة على الميل إلى هذه الأشياء .

وتزيين الشيطان هو بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها »[٢] .

وذهب الزمخشري إلى أن الغاية من تزيين الله هذه الشهوات هو الابتلاء ، يقول « المزيّن هو الله سبحانه وتعالى للإبتلاء »[٣] .

أمّا الشيخ الطباطبائي فيؤكّد على « أنّ السياق الذي وردت فيه الآية هو سياق ذمّ الكفار بركونهم إلى هذه المشتهيات من الأولاد والمال واستغنائهم بتزيينها لهم عن الله سبحانه ، والأليق بمثل هذه الزينة الصارفة عن الله سبحانه الشاغلة عن ذكره ألاّ ينسب إليه تعالى .. الظاهر أنّ فاعل زيّن غيره تعالى وهو الشيطان أو النفس .. لأنّ حبّ الشهوات أمر مذموم وكذا حبّ كثرة المال » .

وينتهي الشيخ إلى أنّ التزيين تزيينان : تزيين للتوسّل بالدّنيا إلى

---

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ص : ٣٨ – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر .
(٣) الكشاف جـ١ ص : ٤١٦ .

الآخرة وابتغاء مرضاته .. وتزيين لجلب القلوب وإشغافها على الزينة وإلهائها عن ذكر الله وهو تصرّف شيطاني مذموم (وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون)[٤] .

ولا يرى الشيخ رشيد رضا مبرّرا لهذه الأثنئية في عزو التزيين مرّة إلى الله وأخرى للشيطان مسايرة لمواقف مسبّقة وذلك أن الكلام في طبيعة البشر وبيان حقيقة الأمر في نفسه لا في جزئياته وأفراد وقائعه ، فالمراد أن الله تعالى أنشأ الناس على هذا وفطرهم عليه ، ومثل هذا لا يجوز إسناده إلى الشيطان ، وإنّما يسند إليه ما قدّ يعد هو من أسبابه كالوسوسة التي تزين للإنسان عملا قبيحا ولذلك لم يسند إليه القرآن إلاّ تزيين الأعمال ﴿ وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم ﴾ ﴿ وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾[٥] .

وعلى النحو نفسه يسير الشيخ بن عاشور في تأسيس فهمه لآية التزيين ذلك أنّه « لمّا رجع التزيين إلى إنفعال في الجبلّة كان فاعله على الحقيقة هو خالق هذه الجبلات فالمزين هو الله بخلقه لابدعوته .. وتزيين هذه الشهوات في ذاته قد يوافق وجه الإباحة والطّاعة فليس يلازمها تسويل الشيطان إلاّ إذا جعلها وسائل للحرام ، وفي الحديث قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر فقال : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر

---

(٤) الميزان في تفسير القرآن مجلد ٣ ص : ١٠٢ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت .
(٥) المنار م٣ ص : ٢٣٩ .

فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » .

وبيان الشهوات بالنساء والبنين وما بعدهما بيان بأصول الشهوات البشرية التي تجمع مشتهيات كثيرة والتي لا تختلف باختلاف الأمم والعصور والأقطار ، فالميل إلى النساء مركوز في الطبع وضعه الله تعالى لحكمة بقاء النوع بداعي طلب التناسل ، إذ المرأة هي موضع التناسل فجعل ميل الرّجل إليها في الطّبع حتّى لايحتاج بقاء النوع إلى تكلّف ربما تعقبه سآمة . وفي الحديث « ماتركت بعدي فتنة أشدّ على الرّجال من فتنة النساء » . ولم يذكر الرّجال لأن ميل النساء إلى الرّجال أضعف في الطّبع وإنّما تحصل المحبّة منهنّ للرّجال بالإلف والإحسان[٦] .

وكما ذكرنا فالتصوّر الإسلامي للحياة ودور الغرائز يتجه إلى توظيفها بدل قمعها ، توظيفها كطريق من طرق عبادة الله والتقرّب إليه في تحقيق برنامجه في المحافظة على الحياة وترقيتها ، وفي ظلّ هذا التصوّر ما أعدّه الإسلام من وسائل لتحقيقه في الواقع لايبقى داع للتحرّج من هذه الغريزة وكأنّها آفة طارئة على الشخصية أو خلل فيها .. لقد ألحّ الإسلام على مطاردة كلّ التصوّرات المتخلفة لهذه الدّوافع ولم يكتف بإقرارها كواقع بل زيّن ورغب في إشباعها وهيّأ أسباب ذلك وأدرجها ضمن برنامج توحيد الله تصوّرا وممارسة حتّى غدا العمل الجنسي في هذا الإطار « الزّواج » نشاطا

(٦) تفسير التحرير والتنوير جـ٣ ص : ١٨٠-١٨١ .

دينيا كسائر الأنشطة الدينية : الصّلاة والصّيام وغيرها ، يستحق صاحبه كما رأينا في الحديث المتقدّم أجرا من الله . يقول الرّسول وهو أكمل إنسان « **حبّب إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصّلاة** » وصيغة حبّب هي من نوع – زيّن – ومعناهما واحد » ثمّ هذا التجاور الموحي بين الصّلاة والميل إلى الجنس الآخر في نفس هذا الإنسان الكامل والأسوة الحسنة ينزع عن هذا الميل كل شوائب الانحرافات الفكرية والدينية التي حامت حول العلاقة بين الجنسين ولوّثتها . إنّ هذا التجاوز يوحي بإمالة وفطرية هذا الميل لأنه مركوز في طبع الإنسان لا حيلة له فيه : حبّب ، زيّن كما يوحي بقدسيته ورفعته إذا أدي كما تؤدّى الصّلاة بنية خالصة في مرضاة الله ووفق تعاليمه .. ممّا لايبقي مجالا مع هذا التصوّر لنشأة الإضطرابات والعقد النفسية بسبب تحقير الميل النفسي والجسدي إلى الجنس الآخر وقمعه المنشىء للكبت .

لامجال للكبت: والكبت عملية تتسلّط فيها مجموعة من الأفكار والتصوّرات المعادية للميول والرّغبات بطريقة لا شعورية ، تسبّب اضطراب الشخصية وتفكيكها[٧] وهو يختلف عن الضّبط الذي هو عملية شعورية تقوم على التحكّم في الرّغبات .

وقد كشف «علم النفس التحليلي عن مدى عمق الرّغبات

---

(٧) المفاهيم والألفاظ في الفلسفة الحديثة ص : ١٨٥ يوسف صديق الدّار العربية للكتاب ليبيا – تونس .

والدّوافع البيولوجية وخاصّة الدافع الجنسي وتحكمه في نشاط الشخصية في كلّ أبعادها محدثا بذلك ثورة شاملة على الفكر الإسلامي مما يعدّ كشفا علميّا هائلا أعاد الإعتبار إلى عمق وأهمية الدّوافع البيولوجية وكان حريّا للإسلاميين أن يكونوا أسبق من غيرهم إلى التنويه بذلك الكشف لأنّه خطوة في التعرّف على الحقيقة البشرية وإعادة الاعتبار لهذه الدّوافع التي قمعت بواسطة التفكير الكنسي طويلا كما قمعت بقيّة الكشوفات العلمية في الميدان الإجتماعي والطبقي **فكانت انتصارات فاليلي ونيوتن وماركس وفرويد خطوات في طريق تحرّر البشرية من الاوهام وقربها من ذاتها العميقة ، وفي كلّ ذلك ، وفي كلّ كشف علمي اقتراب لمركب البشرية من شاطىء الإسلام (الحقيقة المطلقة)** .

ولا ينفي ذلك الحاجة إلى تطوير تلك الكشوف وتحريرها ممّا بقي عالقا بها من شوائب الزّمان والمكان والمبالغات والرؤيا الأحادية .

إشــكالات : ولقد أثارت الآية المتقدّمة لدى بعض المفسّرين إشكالات يحسن الوقوف عندها :

* لماذا قدّم الحديث الميل إلى النّساء عن الميول الأخرى ؟

** لماذا وقع الاقتصار على حبّ الرّجال للنّساء وأغفل العكس ؟

*** ما المقصود بفتنة النّساء للرّجال ؟

حبّ النســـاء :

هل صحيح أنّ الاقتصار على ذكر حبّ الرّجال للنساء وإغفال العكس يعود كما ذكر أكثر من مفسّر إلى قوّة الميل الرّجالي وتفوّقه بالمقارنة مع الميل النسائي .

« وأنّ الحبّ لايبرح بالنسّاء تبريحه بالرّجال ، فالمرأة أقدر على ضبط حبّها وكتمانه وضبط نفسها وحفظ مالها ، وإنّك لتسمع بأخبار الألوف من الرّجال افتقروا واحتقروا وجنّوا في حبّ النّساء ولا تجد في مقابلتهم عشر نسوة قد منين بمثل ذلك في حبّ الرّجال »[٨] . أم أنّ سرّ ذلك يعود إلى أمر آخر غير ما ذكروا ؟ .

ولو عدنا نسترشد ونستأنس بعلم النفس الجنسي لما وجدنا — فيما اطلعنا عليه مايؤكدّ ما ذهب إليه بعض رجال التفسير فلئن أصبحت مسألة اختلاف نفسية كلّ من الرّجل والمرأة منذ أمد قريب — كما أكّد عالم النفس أو سقلد شفارنس — مسألة ثابتة[٩] .

وبالرّغم من تماثل تكوين الطبيعة الإنسانية ومرونتها الاجتماعية فنحن مضطرون إلى الإعتراف بأنّ مزاج الذّكر يختلف اختلافاً أساسيا عن مزاج الأنثى[١٠] ولكنّه اختلاف كما يقول هقلوك متكامل[١١] .

---

(٨) تفسير المنار مجلّد : ٣ ص : ٢٤٠ .

(٩) علم النفس الجنسي تعريب شعبان بركات ص : ١٧٤ تأليف ازوالد شفارتس .

(١٠) علم النفس الجنسي ص : ١٨٣ . (١١) علم النفس الجنسي ص : ١٧٤ .

ويتركّز هذا الاختلاف بين الجنسين في وظائفهما الجنسية وميزات المرأة تتمحور حول وظائفها الجنسية . « كلّ ميزة تمتاز بها المرأة لها علاقة بوظيفتها الجنسية أو هي نتيجة لهذه الوظيفة .. والوظيفة الجنسية شيء أساسي بالنسبة للمرأة بينما هي عرض بالنسبة للرّجل وهذه الوظيفة هي أصل الطابع الأنثوي وكلّ صفة أخرى ثانوية تتغيّر بتغيّر الزي مهما بدت أساسية »(١٢) .

ممّا يجعل الوظيفة الجنسية هي جوهر الأنثى ، وأنه على حين تستيقظ الحياة الجنسية عند الرّجال بصورة تلقائية .. فإذا ما أخذت الخصيتان بالعمل وأرسلتا في الجسم هرموناتهما أثارت في الفتى هذا التوتّر الذي تتولّد عنه الحاجة الجنسية ويحدث هذا التوتّر في الأعضاء التناسلية ويجب تخفيفه في القيام بالفعل التناسلي بينما تهجع الحياة الجنسية عند المرأة حتّى يأتي فتى الأحلام فيوقظها كما تحلم جميع النساء إنّ الفتيات يشعرن في هذه السن بشعور غامض غير محدّد يجتاحهنّ ويبدو في حاجتهنّ إلى الحنان دون أن يكون لهذا الحنان أي هدف خاصّ ..

وهكذا نرى بأن الحياة الجنسية منذ البدء وظيفة بيولوجية عند الرّجل بينما هي ظاهرة نفسية عند المرأة . ويتيح لنا هذا الفرق في الأصل فهم اختلاف طبيعة الحياة الجنسية ومغزاها بالنسبة للرّجل والمرأة ذلك لأن حياة الرّجل الجنسية تتعلّق بذاتها بينما حياة المرأة الجنسية تتعلّق بشريكها .

---

(١٢) علم النفس الجنسي ص : ١٨٥–١٨٦ .

ينضمّ الإتصال الجنسي عند الرّجل إلى سائر الإتصالات التي يقوم بها مع الأشخاص والأشياء وهو إتّصال مهمّ وربّما كان أهمّ من الإتصالات ولكنّه مع ذلك يظلّ شبيها بها ، أمّا المرأة فإنّ الحياة الجنسية لها هي جزء من ذاتها ومن كيانها ولهذا كانت المرأة منغمسة بعمق في حياتها الجنسية وهذا أهمّ ما يميّزها عن الرّجل . ولقد بلغ من أهمية هذا العنصر في وجودها أنّ الفعل الخاصّ – الإتصال الجنسي يفقد الكثير من قيمته[١٣] .

« تضطرّ المرأة إلى إثارة الرّجل وتحدّيه غير أنّ كلّ شيء يتعلّق بردّ الرّجل على هذا التحدّي وتلك الإثارة .. ومعنى ذلك أنّ مصيرها بيد الرّجل طالما أنّ الحياة الجنسيّة لا يمكن أن ترضيها إلا إذا كانت كاملة[١٤] » فالرّجل ليس مجرّد وسيلة لإشباع حاجتهنّ الجنسيّة بل لتحقيق كمال أنوثتهنّ[١٥] .

« ومن المدهش حقّا أن نرى عددا كبيرا من الرّجال يجهلون أنّ النّساء يشتهونهم بقدر إشتائهم هم لهنّ »[١٦] ومع ذلك لا تقوم الحياة الجنسيّة بنفس الدّور عند الرّجل والمرأة لأن المرأة بحاجة إليها لتحقيق ذاتها عن طريق إنجاب الأطفال وتربيتهم فيه بهذا وسيلة تتخذها المرأة للوصول إلى هذا الهدف . أمّا الرّجل فهو بحاجة للحياة الجنسيّة ليشعر برجولته حقّا وليعلم أنّه يستطيع أن

---

(١٣) علم النفس الجنسي ص : ٢٠٨ .
(١٤) علم النفس الجنسي ص : ١٩٧ .
(١٥) علم النفس الجنسي ص : ٢١٣ .
(١٦) علم النفس الجنسي ص : ٢٦٢ .

يقوم بالفعل الجنسي حياته الجنسية إذن غاية في ذاتها ، ومهما بدت الحاجة للقيام بالفعل الجنسي تضحيّة فهي حاجة ملحة جوهريّة عند الرّجل إلحاح حاجة المرأة الجنسيّة(١٧) .

أمّا الفيلسوف الفرنسي المعاصر « فارودي » فيذهب في كتابه اللّامع (في سبيل إرتقاء المرأة) إلى تأكيد نفس المعاني المتقدمة في تحليل ميزات كلّ من الجنسيّة الأنوثيّة والذّكورية فرغم عمق ميل كلّ منهما إلى الآخر وشوقه إليه فإنّه على حين تكاد تنحصر الجنسيّة الذكوريّة في الشّبق العارم العابر الموضعي فإنّ النّساء يتقن إلى عدم فصل الشّبق عن الحب والمحتوى والإعجاب والإحترام ويطلبن قربا أكثر أناة وودّا ومساهمة أكثر شمولا لشخصيتهنّ ... وهكذا يصبح الشّبق النّسائي أكثر رهافة - إذ لا تنحصر النّشوة الجنسيّة في عضو واحد بل الجسد النّسائي في أدقّ أجزائه يهتزّ شبقا إذا لم يقتصر الرّجل على قرب فظ وأناني وحيواني ، وهكذا فالجنسيّة الذّكوريّة بتتلمذها في مدرسة المرأة تصبح أكثر رقة وثراء وإنسانيّة عندما ينطوي العمل الأساسي على ثقافة كاملة للإحساس والإنفعال والمداعبة .. لأن النّساء ينخرطن بذاتهن لدى ممارسة العمل الجنسي بشكل أكثر شمولا من الرّجل(١٨) » .

---

(١٧) علم النفس الجنسي ص : ٢٧٠ .

(١٨) في سبيل أرتقاء المرأة ص : ٧٢ تأليف رجاء فارودي ماليا) ترجمة جلال مطرجي

وينتهي المفكر الإسلامي المعاصر « محمد قطب » في بحوثه التّربويّة والنّفسيّة المقارنة بين الجنسين إلى تأكيد نفس المعاني حول طبيعة الجنسين يقول :

« فطبيعة الرّجل الجسمانية تجعله في حاجة إلى إفراغ الشحنة الجنسية كلّما تجمّعت والحّث لكي يفرغ إلى وظيفته الأخرى من العمل والإنتاج ومواجهة مشكلات الحياة بأعصاب لا يرهقها القلق والاضطراب ، وقد يكون في فترة الشباب على الأقلّ أكثر طلبا للجنس في عدد المرّات فقط ، وإن كانت المرأة أعمق منه استجابة للجنس وأشدّ اشتغالا به بمجموع نفسها وجسدها وروحها في معناه الشامل لا في صورته الجسدية فحسب »[١٩] .

وتكاد تتفق هذه النّصوص على :

أ - إقرار الإختلاف بين طبيعة كلّ من الجنسين والتكامل بينهما .

ب - الإقرار بعمق الدافع الجنسي وقوّة ميل كلّ من الجنسين إلى الآخر .

غير أنّ هناك اختلافا نوعيا أساسيا بينهما فحيث يتّجه هذا الميل لدى الرّجل إلى الإشباع البيولوجي العابر السريع الذي يتركّز في الأعضاء التناسلية خاصّة فإنّ هذا الميل يمثّل الوظيفة الأساسية في

---

(١٩) شبهات حول الإسلام - تأليف محمد قطب ص : ١٣١ - دار الشروق ١٣٩٣ هـ ٢٩٧٣م .

شخصية المرأة فهو أكثر عمقا وشمولا وإمتداداً ورهافة ورغبة في الالتحام والاتحاد حدّ الذوبان مع الطرف الآخر وليس الجسد إلاّ مناسبة لذلك الاتحاد والإشباع النفسي[٢٠] .

ومن ثمّ فالمرأة بالنسبة للرّجل بُعْدٌ من أبعاد شخصيته وامتدادها ومجال من مجالات اتصالاته الأساسية يستعيض عن الفشل فيه بالنجاح والتفوّق في مجالات أخرى أمّا بالنسبة إليها فهو محور حياتها وزخم أحلامها وقدرها المحدّد لسعادتها أو شقائها وهو مرآتها التي تنظر نفسها من خلالها فتحاكم على صورتها وتقيّم شخصيتها من خلال إنعكاسها في صورته وشخصيته .

إنّها مهما حاولت تظلّ مشدودة إلى ذلك الانعكاس إلى انطباعات الرّجل وملاحظاته وآرائه حول شكلها وهندامها وطوقها فتجتهد في نحت شخصيتها وتحويلها من خلال ذلك:أنه /عالمها ومجالها الحيوي ومصيرها . إن الرّجل قلّما يعطي نفسه كلّها والقدر الذي يعطيه يحصل من خلاله على مايرضيه من إطفاء نيران

---

(٢٠) ونظرا لأهمية التّافع الجنسي ونوعية الأسلوب الذي يمارس به فقد ألح الإسلام على ضرورة استبعاد العقلية النفعية المادية في ممارسة العمل الجنسي ووجه إلى الطبيعة الشمولية العميقة له . فكان مجالا هامّا من مجالات التوجيه النبوي لايقعنّ أحدكم على إمرأته كما تقع البهيمة . وليكن بينهما رسول قيل وما الرّسول ؟ قال القبلة ، الكلام . رواه الديلمي أي الكلام الحلو الموقظ رغم ذلك فإن مسؤولية الارتقاع بذلك العمل إلى مستوى الكمال تعود إلى كلّ من الزوجين . ﴿ هنّ لباس لكم وأنت لباس لهنّ ﴾ - البقرة : ٣٨٦ - فهلّا بكرا تلاعبك وتلاعبها . رواه الخمس - لنا عودة للموضوع - إن شاء الله .

شهوته أمّا المرأة فتطمح إلى الكمال ، إنّها لاتتوحد بذاتها ولا تمتلىء حياتها وتشرق أنوثتها وتتحقق سعادتها إلاّ أن تعطي وجودها كلّه ، ولا تتردّد في ذلك لحظة إذا ظفرت بمن يستحق ذلك أو خيّل لها ذلك . وأشدّ مايشقيها أن لاتجد من يستحقّ أن تهبه حياتها . ولذلك فهي أكثر ثباتا في حبّها ووفاءا وتضحية وأقل ميلا إلى التنقلَ إلاّ أن تكون قد فشلت في الظفر بمن يستحقّ أن تهبه وجودها فتتوق إلى البحث عنه وهذا الجنوح العارم إلى الحبّ والالتحام بالمحبوب يجعلها أكثر استقرار حتى على مستوى الاختيار العقائدي . وأبعد عن التنقل والتذبذب وهذا ما يفسّر في صدر الإسلام ندرة المرتدّات عن الإسلام بالقياس إلى المرتدين . فهنّ لايتجارن بالحبّ : حبّ الزّوج إذا أحببنه وحبّ الولد وحبّ الله .. وكلّه عطاء وإتجاه إلى الاتحاد والفناء في المحبوب(٢١) .

ونحن نكاد نجزم على ضوء الدّراسات النفسية الحديثة – بخطأ التعليل الذى ذهب إليه بعض رجال التفسير في تفسير اقتصار القرآن على ذكر حبّ الرّجال للنساء في الآية المتقدّمة وإغفال النّساء من أنّ قوة الميل الذكوري وتفوّقه على الميل الأنثوي هو العلّة .. فقد رأينا سطحية ذلك الميل على قوّته وتموضعه وآنيته بالمقارنة مع

---

(٢١) نقل ابن كثير في « الكامل » مجلّد ٢ ص : ١٣ من أحداث غزوة أحد أنّ رسول الله ﷺ انصرف فلقيته حمنة بنت جحش فنعى لها أخاها عبدالله فاسترجعت له ثمّ نعي لها أخيها حمزة فاستغفرت له ثمّ نعي لها زوجها مصعب بن عمير فولوت وصاحت فقال النبي عليه السّلام « إنّ زوج المرأة منها بمكان » .

ما في الميل المقابل من عمق وإمتداد وشمول .

أمّا صاحب المنار فقد حاول دفع هذا الإشكال عن طريق ضرب ذكي من التأويل صرف فيه لفظ ، حبّ النّساء « عن معناه الجنسي الظّاهر كمقابل الجنس الرّجال على اعتبار أنّ الآية لم تقل « زيّن للرّجال حبّ الشهوات من النّساء ... والبنين » بل ذكرت « زين للناس حبّ الشهوات من النّساء ... » فقبول المعنى الظاهري .

أ - يجعل النّساء وكأنهن لسن داخلات في مسمى الناس ممّا هو مفروض بداهة وعرفا وشرعا ...

ب - قبول دخولهن في مسمّى الناس كما هو مقتضى الشرع والعقل لايستقيم معه اعتبار أن مسمى النّساء في الآية مقصود به الجنس الأنثوي مقابل الجنس الذكوري لأن الآية على هذا التأويل تصبح كالتالي « زيّن للرّجال والنّساء حبّ الشهوات من النّساء والبنين » ممّا لا يستقيم معه السياق .

ج - إنّه حتّى على فرض قبول تأويل الناس في زيّن للناس فئة محدودة منهم هي فئة الذّكور وإنّ حبّ هؤلاء للنساء لقوّته وشدّته خصّ بالذّكر استغناء بأقوى الطرفين على الآخر فإنّ سياق بقيّة الآية لايستقيم مع هذا الفهم ، لأنّ حبّ البنين والأموال . ﴿ والبنين والقناطير المقنطرة ... ﴾ ليس جبلة اختصّ بها الرّجل دون المرأة بل الثابت الذي تشهد به الفطرة ويقرّه الواقع أن حبّ النساء للبنين وتعلقهن بهم وتضحيتهن في ذلك لايبلغ الرّجال شأوه مهما فعلوا ..

كلّ ذلك لايستقيم معه إجراء لفظة « النّساء » في الآية على ظاهره ويتعيّن معه صرفه إلى معنى الزوجية كما فعل صاحب المنار يقول « فمن تأمّل هذه المعاني والفروق في حبّ كلّ من الزوجين للآخر سهل عليه أن يقول : (إنّ المراد بحبّ النّساء) حبّ الزوجية الذي يكون بين المرأة والرّجل »[٢٢] ، فيكون المقصود بهذه الرّغبة الجامحة التي قدّمت على سائر الرّغبات والمشتهيات هي رغبة كلّ من الجنسين الاقتران والالتحام بالطرف الآخر . وهي رغبة مغروسة في كيان كلّ منهما لا حيلة له فيها ولو وُكلت إلى اختيار لقادها فانصرف عنها وعرّض النّوع للاندثار ولو تركت هذه الشهوات دون ضوابط تضمن استمرار أدائها لوظائفها في استمرار النوع الإنساني وتطوّره وحيويته لطغت واستعبدت صاحبها فأذلته وقوّضت استقراره وطمأنينته . ولقعدت به عن كلّ طموح إلى تجاوز الضرورة ومحاولة الحضارة ولذلك يعرض الذمّ لهذه المشتهيات إذا تحوّلت من كونها وسائل إلى كونها غايات ومن كونها محكومة بضوابط الخلق والدين إلى كونها حاكمة ...

عمـــق هذه الغريزة :

وممّا يؤكد عمق هذه الغريزة وأهميتها – لافقط على المستوى البيولوجي في حفظ النّوع بل على المستوى النفسي والرّوحي في

---

(٢٢) تفسير المنار : ص٢٤١ ، م٣ .

استقرار الشخصيّة وتوازنها وسعادتها بالتالي ، وفي المستوى الاجتماعي الحضاري عامّة - ما خصّت به في هذه الآية من تقديم على سائر المشتهيات وتحذير من إستقلالها وانفصالها عمّا وضع لها من أهداف وجعل لها من ضوابط فيحصل للمسلمين ما حصل لغيرهم ممّن شغلهم المتاع القريب عن المثل العليا والغايات الكبرى ، فذكّرهم بتفاهة هذه اللذات إن هي انفصلت عن كونها وسائل إلى الآخرة **﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربّهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهّرة ورضوان من الله ﴾** فلم يذكر من لذّات الدّنيا : الأزواج والبنين وأصناف الأموال ... - غير لذّة واحدة : لذّة الزوجية وكأن السعادة لهذا الكائن لا تتصوّر في غيابها . إن الذّكر والأنثى ليسا في النهاية شخصيتين بل شخصية واحدة انقسمت لتؤدي بانقسامها ثمّ شوقها العنيد إلى الاتحاد دورا مقدورا لها في إكمال تلك الشخصية وعمارة الحياة ، ولئن كانت الزوجية قانونا من قوانين الوجود بكلّ مستوياته فإنه على حين جبل ذلك في كلّ الأنواع عدا الإنسان على قانون ينظم حركته لقاء وافتراقا ترك للإنسان اختيار القانون المنظم لحركة ذلك الشوق وله أن يختار النّظام الإلهي أو أي نظام شاء متحمّلا - طبعا - مسئولية اختياره في حياته هذه القصيرة وفي الأخرى ثمرتها .

ولقد أبدأ القرآن وأعاد في بيان العلاقات والقوانين التي ينبغي أن تخضع لأوامر الشرع كما لم يفعل مع أي شوق آخر أو غريزة أخرى .

النســـاء فتنــة :

ذهب من اعتبر أن الشهوات الواردة في آية التزيين قد وردت في معرض الذم المنسوب إلى الشيطان .. وأوّل تلك الشواهد : حبّ النساء وقد رأى في حديث النبي ﷺ : « **ماتركت بعدي فتنة أشد على الرّجال من النساء** » ، اخرجه البخاري دلالة تبرر تقديم حب النساء وخطره على كل بقيّة المشتهيات الأخرى ... وليس الأمر كما ذهب إليه ونضيف إلى ما قدّمنا :

١ – إنّ الدين لم يذمّ ولم يحتقر ذلك النّداء الطبيعي ولم يعتبر الرقي في الترّفع عن الفطرة الإنسانية فإن هذه النظرة المترفعة المعكوسة تؤدي إلى صراع تتقد فيه نفوس الرّجال والنساء على السّواء .

وإذا كانت المرأة فتنة كما يراد أحيانا في نصوص فمعنى ذلك أنها موضع اختبار للرجل وهذا أدى لحرص الرجل على إحسان معاملتها لأنّه مسئول عن ذلك محاسب عليه – وقد عبّر القرآن عن المال والولد بأنّهما فتنة والدّنيا كلّها فتنة كذلك ولم يكن معنى هذا احتقار المال والولد والدّنيا وإنّما المعنى مراقبة أحكام من الله عزّ وجلّ من أجل صالح المجموع حتّى يجتاز المرء الإمتحان ... فالله الذي قال : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ هو الذى قال : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدّنيا** ﴾ . ولقد ورد « نعم العون على التقوى المال » كما ورد « الدّنيا كلّها متاع وخير متاع الدّنيا المرأة الصالحة .

٢ – ليست المرأة هي وحدها الفتنة فالرّجل هو فتنة لها . فكلّ

منهما خلق فتنة للآخر أي مجالا لإختبار شخصيته وصقلها ودفعها في اتجاه للتطوّر صاعد أم هابط ، ولذلك ورد في الحديث « ويل للرّجال من النساء وويل للنساء من الرّجال » فالرّجل والمرأة كلاهما قد يكون لشريكه فتنة وعذابا في الدّنيا والآخرة . فيعين الشيطان عليه وينمّي في نفسه الإحساسات الهابطة ويدفعه إلى الترف والتبذير والمجون وسخط الله .. ولأن المرأة قد أوتيت قدرة كبيرة على التأثير في الرّجل فإنّ هبوطها نذير بهبوط المجتمع كلّه واتجاهه نحو الانهيار ..

ورد في الحديث : « **إن أوّل فتنة بني اسرائيل كانت في النساء .. إنّ امرأة الفقير كانت تكلّف زوجها من الزينة ما تكلّف امرأة الغني** »[٢٤] .

وهكذا عندما يخلو قلب المرأة والرّجل من الهموم الكبيرة والمثل العليا ورأسها محبّة الله وخشيته وعبادته والجهاد لأجل إعلاء كلمته وتتقلّص الشخصية وتتمحور حول المتاع القريب تتحوّل قوّة التجاذب بين الرّجل والمرأة إلى كارثة على نفسيهما وعلى المجتمع والحضارة جملة . وقد يكون كلّ منهما للآخر بركة ورحمة عندما تندرج العلاقة بينهما ضمن البرنامج الإلهي لحياة البشر وترقيها ، عندها يمكن أن تلمح « وراء كلّ عظيم إمرأة » « النساء شقائق الرّجال »[٢٥] و« الدّنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة »[٢٦] .

---

(٢٣) الفكر الإسلامي والتطوّر د . فتحي عثمان ص : ١٩٦ – الدّار الكويتية .

(٢٤) الحديث رواه : (٢٥) الحديث رواه : أبوداود والترمذي .

(٢٦) الحديث رواه : مسلم .

و« اظفر بذات الدين تربت يداك » .

وعندها يمكن أن نقتصر على التنعمّ بهذا المشهد الذي التقطته السيرة لعش زوجي سعيد بل نطمح أن نعيشه ..

« رحم الله رجلا قام من الليل فصلّى وأيقظ زوجه للصّلاة فأبت فنضح وجهها بالماء فقامت فصلّت ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت وأيقظت زوجها للصّلاة فأبى فنضحت وجهه بالماء فقام فصلّى » .

عندها لاتكون الحياة الجنسية في إطار الزواج مجرّد لذّة عابرة بل تكامل وسكينة وتشارك جهادي لترقية الحياة وتطوّرها نحو الوحدة والبذل والحرية ...

والله الموفّق لسواء السبيل ..

المرأة في الحركة الإسلامية[1]

وضعية المرأة في عصر الانحطاط

إذا جاز لنا أن نعرف الإنحطاط بأنه سلبية الإنسان وعجزه تجاه الطبيعة والمجتمع، فإن هذه السلبية لتبدو في أجلى مظاهرها في لون التربية الأسرية التي تشكل المرأة عمودها الفقري .

لقد رسخ الإنحطاط في نفسية

(١) محاضرة ألقيت في مقر مجلة المجتمع « التونسية » بساحة المنجي بالي بالعاصمة سنة 1979 تلاها حوار سحبت مضامينه في آخر الورقة كملاحق واقتصرت المشاركة على ثلة من الأخوة كان من بينهم صالح كركر وحميدة النيفر والجديدي والحبيب المكني وبعيسى دمني وصلاح الجورشي .

المرأة شعورها بأنها مخلوق ضعيف عليه أن يعتمد في إثبات شخصيته على غيره . وأنها جنس لطيف لم يخلق إلا للمتعة ، وأنها ليس لها من سلاح في معركة الحياة غير جسدها فينبغي أن تتعلم كيف تفتن في تنميقه وصقله وتطييبه .

لقد غدت المرأة تولد مكروهة محتقرة .. فعليها أن تكون عطوفة لينة ، كائنا مطيعا للرجل ومجالا لإثبات سيطرته وقدرته فتربى على القهر من طرف الأب والأخ - حتى ولو كان اصغر منها - ثم الزوج وهكذا !! ولئن حرم الإسلام وأدها فلقد أعدّ الانحطاط وأدًا آخر لشخصيتها وكرامتها ، فرسخ فيها عدم الثقة بالنفس والاتكال على الغير وتقبل الإهانة والاحتقار وهي صفات ترضعها مع لبانها لأطفالها فيتوارث المجتمع كله مشاعر الضعف وعدم الثقة بالنفس والاتكال على الغير مما يجعل هذه التربية الأسرية مؤسسة رئيسية في مجتمع الاستبداد إذ يسحق الفرد في العائلة ويهيؤ لقبول الاستبداد ، فإذا ذهب إلى «الكتاب» والمدرسة توطدت تلك التربية عن طريق الزجر والإهانة وإنزال العقوبات الجسدية بالطفل ، حتى اذا تخرج ودخل دورة الإنتاج الاقتصادي كان مهيأ لتقبل استبداد المؤسسة الاقتصادية واستغلالها لتلك التربية العائلية والمدرسية التي تمحق الفرد وتئد فيه روح الجرأة والصراحة والاعتماد على النفس مما يجعل كل محاولة لإحداث تحول اجتماعي مصيرها الخيبة ما لم تسبق بثورة على مستوى التربية العائلية ولأن شخصية الفرد تتكون خطوطها الأساسية في البيت حيث يقضي الطفل حياته الأولى ملتصقا شديد الالتصاق بأمه فإن كل تحول حقيقي في صلب المجتمع ينبغي أن يمر

بالأسرة وبالتالي بالعنصر الرئيسي فيها : المرأة .

إنه ما لم تتحرر المرأة من مشاعر الضعف والخنوع والتواكل واعتبار أن رصيدها لا يعدو جسدها الجميل ليحل محل ذلك نموذج نسائي يشعر بالثقة بالنفس والاعتماد عليها وبضرورة الجهاد الدائب لتحرير نفوسنا وامتنا من كل هيمنة وتسلط حتى تتحطم كل الطواغيت فلا ينحني ابن آدم الا لمولاه عز وجل ، ما لم يحصل ذلك ، فإن جمود الانحطاط سيتواصل ، وحتى ما يبدو هنا وهناك من تحركات وانتفاضات فلا تعدو أن تكون سمنا مصطنعا وحماسا عارضا والتماعة قصيرة .

مجتمع نسائي منعزل :

لقد عمل عصر الإنحطاط على تضييق آفاق المرأة بعزلها عن هموم المجتمع ومشاغله الثقافية والسياسية فغدت مجتمعات النساء مشغولة بتوافه الأمور لا يتجاوز اهتمامهن الحديث عن الثياب والزينة والأولاد وقضايا الزواج والطلاق واغتياب بعضهن بعضا ، وكان ذلك ثمرة حتمية للعزلة التي فرضت على المرأة وأبعدتها عن منتديات العلم ومشاغل المجتمع وحولتها إلى آلة إنجاب ومتاع . ولم تجد أوروبا أساساً ترسي عليه قيم المجتمع الجديد بعد أن تحطم الأساس الكنسي الذي كان يحمي الاقطاع والاستبداد بداية من المؤسسة العائلية وانتهاء بالمؤسسة الاقتصادية والسياسية ، لم تجد أوروبا غير مبدأ الحرية الفردية واللذة والرفاه والقوة والسيطرة كأسس للمجتمع الجديد ، فانطلقت المرأة تروي ظمأها إلى الحرية التي سلبتها طويلا وتناضل من أجل المساواة

وساهمت الحروب المدمرة التي خاضتها أوروبا والتي ذهب ضحيتها ملايين الرجال في ابراز الدور الاقتصادي للمرأة وبالتالي في اعتمادها على ذاتها ، ولم تكن لهذه الثورة التحررية من منظومة قيم تحميها من الوقوع في أسر الشهوات **والمؤسسات الرأسمالية العتيدة التي استغلت ولع المرأة بالزينة** واللباس والتفنن في ابراز مفاتن الجسد والتركيز عليه كموضوع للاشهار والفن » **وتمكنت المؤسسات الرأسمالية** في النهاية من فرض استغلال رهيب على المرأة واستنزاف جهودها في استهلاك منتجات الزينة التي لا تعرف الاستقرار وتكريس الفكرة القديمة : المرأة المتاع أو المرأة الجسد .

الـدور الاسـتعماري :

لقد وجدت أوروبا المنتشية بثورتها الصناعية والمفعمة بمثل القوة والسيطرة ، وجدت في العالم الإسلامي الذي ظل محنطا قرونا طويلة يزخر بمختلف المظالم وألوان الاستبداد والجهالات ، وجدت المجال فسيحا لفرض سيطرتها عليه وتدمير امكانياته الاقتصادية والثقافية ، فعمدت إلى القضاء على الصناعة اليدوية وأنشأت مؤسسات صناعية هي امتداد للاقتصاد الرأسمالي مما خرب الريف ، خاصة بعد أن وضع المستعمر يده على الأراضي الزراعية ودفع بالريفيين إلى الهجرة صوب المدن حيث تتوفر بعض إمكانيات العمل بشروط مجحفة » فتجمع العمال فى أحياء سكنية فقيرة وانكسر الطوق الخارجى الذى كان يحمى القيم الأخلاقية فى الريف قيم الحياء والشرف » فهنا يختلط الناس بعيدا عن علاقات النسب والقرابة العشائرية مما يهدم فاعلية القيم التقليدية (الحياء والشرف والخوف من العار) تلك القيم التي كانت

تمارس عملها من خارج الفرد لحماية شرف العائلة والعشيرة ، أما هنا فلا عشيرة ولا شرف .

ولقد غذّى المستعمر الثورة على القيم التقليدية بالعمل على نشر قيمه الثقافية عن طريق المدارس ومؤسسات الاعلام ، وخاصة تلك القيم المتعلقة بالعلاقات بين الجنسين ، مستغلا الوضعية السيئة بل الوحشية التي كانت المرأة عليها ، في الريف خاصة ، والتي كانت تتطلب ثورة » ولأن الثقافة الدينية التقليدية التي كانت تحرسها المؤسسات الدينية التقليدية ما كانت مؤهلة لإنجاز هذه الثورة من منطلق الإسلام الحق ضد إسلام الزيف والإنحطاط » وذلك ان تلك المؤسسات الدينية هي الأخرى يخيم عليها الإنحطاط ، بل كانت الجهاز المنظر له في كثير من الأحيان ، فقد انطلقت الثورة ضد تلك الأوضاع الهمجية من خارج الأجهزة الدينية وموجهة ضدها بعيدا عن الدين بل على حسابه ، متعمدة الخلط بين الدين في صورته الانحطاطية وصورته الأصلية .

التمييع البورقيبي وردّة الحركة الإسلامية :

لم تظهر الحركة الإسلامية في تونس في مجتمع بدوي تسوده علاقات الفطرة ، بل ظهرت في مجتمع ارهقته الحضارة وفتّ في عضده ونخر كيانه تقليد الغرب والجري وراء مظاهر زائفة من حضارته ، لقد خيل لزعماء البلاد وكلهم اعجاب بالغرب أننا لن ننضم إلى ركب المتحضرين الغربيين حتى تسير سيرتهم في مظاهر حياتهم » وأبرزها وضعية المرأة ومساواتها بالرجل ، فانطلق النظام

البورقيبي مفتونا بالغرب – يهدم بكل عنف أركان المجتمع القديم دون تمييز بين الحسن والقبيح ، معتبرا ان تحرير المرأة – كما تصوره – هو طريقه الأمثل إلى اللحاق بركب الحضارة ، فجاءت مجلة الأحوال الشخصية لا باعتبارها مجموعة قوانين لتصحيح وضعية المرأة بل ثورة عاصفة على المجتمع القديم ، واطلقت معها موجة من التهجم على الدين ورجاله ودعوة إلى الإنطلاق المحموم المدمر الذي أوشك أن يطيح بكل خلق ودين ، واصاب العلاقات بين الجنسين بتوتر شديد وهز الكيان الأسري هزا عنيفا حتى ان نسبة الطلاق في السنة الأولى من تطبيق مجلة الأحوال الشخصية وسنة ١٩٥٧ لم يتجاوز ٧٠٠ قضية على حين تجاوزت هذه النسبة في السبعينات العشرة آلاف، ولم يكن هذا الزلزال الذي أصاب العائلة ناتجا بالضرورة عن النصوص القانونية التي تضمنتها المجلة بقدر ما كان ناتجا عما صاحبها من ثورة عارمة على الدين وقيمه اصطبغ بها النظام البورقيبي عند انطلاقته في الخمسينات وبلغت أوجها في الستينات فهوجم الدين في شعائره التعبدية كالصيام وصودرت مؤسساته (جامع الزيتونة ، الكتاتيب ، الأوقاف) . وأزيحت لغته في التعليم والإدارة وكبت نزوع البلاد التاريخي صوب المشرق العربي لتربط ربطا محكما سياسيا واقتصاديا وثقافيا بالغرب .

ردّ الفعـل الإسـلامي :

فلا عجب أن تجد الحركة الإسلامية نفسها في انطلاقتها في السبعينات تواجه مجتمعا منحلا يستمد فلسفة انحلاله من البورقيبية فتدين ذلك المجتمع إدانة جذرية مطلقة ولم تسلم تلك الإدانة – نتيجة

ما يصاحب ردّ الفعل عادة من حماس عنيف وقلة تبصر وإمعان في النصوص للتمييز بين الأصيل والدخيل في الإسلام - لم تسلم - في بعض جوانبها على الأقل - من التأثر بنمط العلاقات التي كانت سائدة في عصور الانحطاط بين الجنسين فتصدت الحركة الإسلامية - إلى جانب تصديها للاستهتار والعري والميوعة - للإعتراض بشدة على عمل المرأة خارج البيت واختلاطها بالرجال في المدارس - دون تحديد دقيق لمفهوم الاختلاط - كما دافعت بشدة عن تعدد الزوجات وكأن التعدد واجبٌ دينيٌ وليس علاجا استثنائيا ، وشجعت المرأة على الاكتفاء بالحد الأدنى من التعليم ، وتشددت في رفض كل علاقة بين الرجال والنساء عدا علاقة القرابة والزواج .

ونحن الآن بعد عشر سنوات من التحرك بالإسلام في بلادنا - أثمر بفضل الله - جيلا من الشباب المسلم من الجنسين ، ممتلئا حماسا لدينه وعزما على النضال من أجل قيام مجتمع يعيش وفق تعاليمه أو الموت دون ذلك على حين خلت المساجد في الخمسينات والستينات إلّا من عجوز مدنف إلى القبر - نجد أنفسنا في موقع يسمح لنا بل يوجب علينا - [ونحن نعبر مرحلة الدعوة والإرشاد والتربية إلى مرحلة تجذير الإسلام وبلورة اختياراته الاجتماعية] - تقويم مراحل سيرنا الماضية بكل موضوعية بعيدا عن تقديس الماضي أو تحقيره ..

كيف كانت البداية ؟

لقد أدركت الحركة الإسلامية منذ انطلاقتها في بداية السبعينات

أهمية المرأة في مسألة الإصلاح فخصتها ببعض الاهتمام، وتوجهت إليها بالدعوة العامة من خلال بعض الحلقات النسائية مثل حلقة جامع سيدي يوسف التي تأسست سنة ١٩٧٢ تحت إشراف بعض الشيوخ لتعليم النساء اساسيات الدين وما يخصهن من تعاليمه من خلال دروس التفسير والحديث والفقه .. وتوالت بعد ذلك الحلقات النسائية في بعض مساجد العاصمة وضواحيها ثم انتشرت شيئا فشيئا داخل البلاد .. ولقد كانت الأخوات يساهمن بالحضور في الدروس العامة وفي الحلقات والندوات التي تنظم في المساجد والثانويات والكليات ، دون تشجيع كبير من الرجال ودون أن تزيد مساهمتهن عن الحضور ومع ذلك فقد كان اقبال النساء على الدعوة كبيرا فبرزت ظاهرة الزي الإسلامي (الفستان الطويل وغطاء الرأس) بشكل ملفت غير ان النشاط الإسلامي بين النساء لم يتجاوز مستوى تصحيح التصورات العقائدية وتقويم السلوك وإحسان التعبد في المظهر فلم يكن يطمح ذلك النشاط ان يتجاوز بالأخت إعدادها لتكون ربة بيت صالحة : تؤمن بالله ورسوله وتقيم الصلاة وتتأدب بآداب الإسلام في مظهرها مع ترغيبها في لزوم بيتها والانصراف عن العمل خارج البيت ، والاكتفاء بحد أدنى من التعليم ..

وكانت المشاكل المطروحة من طرف الأخوات نتيجة التكوين الجزئي تتركز حول قضايا جزئية في الإسلام كتلك التي تتعلق بزينة المرأة من تنميص وتطيب ، ومصافحة الأجنبي وجواز انكشاف الأقدام أم لا ؟ وحول ضيق الزي وسعته ، والخلوة ، والاختلاط ، والحديث مع الأجنبي ، وكانت التوجيهات تلح على تضييق علاقات

الرجال بالنساء إلى أبعد الحدود حتى مع زملاء الدراسة ولو كانوا إسلاميين ولو مع تجنب الخلوة والتزام الجد في الحديث ..

العمل النسائي في طريق التطور:

ان توسع العمل الإسلامي والإقبال المتزايد للمرأة على صفوفه وكثرة الضغوط التي تلاقيها من المجتمع خاصة بعد اندلاع الثورة الإيرانية وما صاحبها من اصداء عن دور المرأة الإيرانية فيها ، جعل الأخوات يطالبن باهتمام أكبر بهن من طرف الحركة للقيام بدور أكثر فعالية في عملية التحول الاجتماعي بل ان الأخوات لم يقفن موقف المستأذن ينتظر الدخول بل اقتحمن عدة مواقع من العمل الإسلامي فطفقن ينشئن بأنفسهن الحلقات العامة والخاصة ويعلن عن تذمرهن من الدور المحدود المخصص لهن ، ومع اشتداد الضغط على الحركة الإسلامية من طرف النظام طوال سنة ٧٨ وما أدى اليه من تجذر في موقف القطيعة بين الحركة الإسلامية والنظام وتوجه الحركة صوب الجماهير متخلصة شيئا فشيئا من التفكير النخبوي الانعزالي ومن نزعة الخوف والحذر التي صاحبت تربية المرحلة الأولى نشأت أواخر السبعينات حركة نقد ذاتي وامتدت إلى نطاق واسع في صلب الجماعة فشملت من جملة ماشملت تصورنا للمرأة ووضعها في الحركة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ودورها في الثورة الإسلامية لدرجة أننا بدأنا نتساءل على استحياء : إلى أي مدى تعبر حركتنا عن الإسلام في نظرتها إلى المرأة ، إلى أي مدى يمكن ان نعتبر انفسنا قد تحررنا في

موقفنا من قضية المرأة من تراث عصر الانحطاط ومن ردود الفعل تجاه التمييع البورقيبي للمرأة والمجتمع ؟

وفعلا فلقد اخذت قناعتنا تتأكد شيئا فشيئا من أن كثيرا من مواقفنا ومنها موقفنا من المرأة كانت متأثرة نوعاما بعدائنا للتمييع البورقيبي من ناحية وبالصور التراثية التي تسربت إلى كثير من الكتابات الإسلامية المعاصرة ، من ناحية أخرى .

تــدارك الأخطــاء :

والحركة اليوم وهي بصدد التقويم الشامل لمسارها خلال العشرية الماضية حتى تكون أقدر على تأطير حصاد المرحلة السابقة لتمكين هذه الجموع الغفيرة المقبلة على الدعوة من الرجال والنساء من الظروف المناسبة لتوظيف طاقتها في عملية التغيير الاجتماعي وبلورة رؤية إسلامية للمجتمع الإسلامي البديل ، أن الحركة وهي تفعل ذلك تدرك حق الإدراك اهمية دور المرأة في حركة التغيير والتنوير الاجتماعيين سواء بالمنظور الديمغرافي الذي يكشف عن ان أكثر من نصف المجتمع التونسي من النساء أو بالمنظور التربوي من حيث ان المجتمع يتربى على يدها ذلك أن شخصية الطفل في السنوات الست الأولى تشكل الأم العامل الرئيس فى تكوينها ، فكيف تتبنى حركة الجماهير أداة للثورة ثم تترك المرأة في حالة تشبه الأهمال ، ليس لها في افضل الحالات إلا دورا ثانويا .. ان لحركة لا يتجاوز طموحها في

تربية المرأة ان تستر جسدها وتقيم بعض الشعائر الدينية حرية بأن تكون حركة نخبوية ذات ابعاد ثقافية محدودة وليست حركة جماهيرية .

وحتى تقوم المرأة بدورها الريادي في الاطاحة بالطاغوت وإقامة مجتمع العدل والحق والحرية لا مناص من إزالة بعض العقبات التي تعترض طريقها وتشلّ طاقاتها تساهم بذلك في المحافظة على الكيان الطاغوتي قائما وقتا أطول .

ان عددا كبيرا من المفاهيم المتعلقة بالمرأة تحتاج إلى إعادة نظر على ضوء النصوص الثابتة ، واعتبار الصورة التي اتخذتها المرأة في بعض العصور الإسلامية ليست إلا صورة من الصور الممكنة التي عبر بها المسلمون عن أنفسهم في ظروف سياسية واجتماعية .. فإذا تغيرت تلك الظروف يمكن للمسلمين أن يعبّروا عن انفسهم في صور اجتماعية أخرى تكون أكثر أمانة للنصوص الثابتة (من قرآن وسنن) وملبية لمطالب المرحلة ،

وإليك أخي بعض هذه المفاهيم :

المـرأة شخص كامـل :

إن المرأة من حيث كونها إنسانا مساوية للرجل وهي مخاطبة مثله بتكاليف الشريعة ، فهي مسؤولة مسؤولية كاملة ، لايحمل عنها في الدنيا ولا في الآخرة تبعات اعمالها غيرها ، فهي تحدد مصيرها بنفسها فتبرم باختيارها الشخصي مختلف العقود : عقدا مع الله فتؤمن

به وتطيعه أو ترفض ذلك ، ومع الرجل فتختاره زوجها وتتصرف في ما تملك بكل حريتها دون تدخل من أية جهة كانت : روى الترمذي عن أم عمار الأنصارية إنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرون بشيء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات اعدّ الله لهم مغفرة وأجرا عظيما .** ﴾ .

[الأحزاب : ٣٥]

وفي الاتجاه العام للآيات التي ذكرها القرآن (المتعلقة بالمرأة) دعوة ملحة للحد من سلطة الرجال التعسفية على النساء : ﴿**ولا تعضلوهن**﴾ ﴿**ولاتمسكوهنّ ضرارًا لتعتدوا**﴾ ﴿**لايحلّ لكم أن ترثوا النساء كرها**﴾ ﴿**لاتخرجوهن**﴾ ﴿**ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء**﴾.

عمـــل المـــرأة :

ان هذه القضية التي غدتأثر اتصالالمسلمين بالحضارة الأوروبية مشكلا لم تطرح في كتب الفقه قديما ، فلم يتساءل الفقهاء ، هل للمرأة أن تساهم في حركة الانتاج الاقتصادي أم لا ؟ رغم أن الإسلام يؤكد على مسؤولية الرجل في الانفاق على بيته لتفرغ المرأة لتربية أبنائها، ولكنهم لم يضعوا قيودا خاصة بها تمنعها من ممارسة

النشاط الاقتصادي ، ففي المجتمعات الإسلامية وقد كانت في معظمها مجتمعات زراعية ريفية كانت المرأة تساهم في كل مراحل الانتاج الزراعي والرعوي .. الخ ، وفي المدن كانت لها مساهمتها في الإنتاج الاقتصادي وكانت وضعية الأسرة من الغنى والفقر هي التي كانت تحدد تدخل المرأة في عملية الإنتاج الاقتصادي أو عدم تدخلها .. فلماذا يطرح اسلاميو العصر هذا المشكل إذن ؟

إنهم لا يعترضون على المرأة الريفية ان تعمل في الحقل وتعين زوجها رغم اختلاطها بالرجال في جوجاد بعيد عن الإثارة ومفعم بروح الفطرة والعفوية .. وهم لا يعترضون على عمل المرأة في منزلها في الصناعات اليدوية وإنما اعتراضهم على عملها في الإدارة أو المصنع أو المدرسة أي على اشتراكها في الحياة الاقتصادية وقد انتقلت من مرحلة الإنتاج الفردي إلى مرحلة الإنتاج الجماعي ، واعتراضهم لاينطلق حسب ذلك من منطلقات النصوص التي لم تحدد للمرأة عملاً معينا وإنما انطلاقا من صورة المجتمع الريفي التي لا تزال مهيمنة على اذهانهم فلا يتصورون الإسلام إلاّ مطبقا في مجتمع ريفي ... فما اعتراضهم على امرأة مسلمة تتأدب بأدب الإسلام في زيها وتخرج من بيتها لتشتغل بإدارة أو مصنع لتساهم في حركة الإنتاج الاجتماعي ، تساهم في اعالة اسرتها ، قد يعترضون بأن الزوج هو المسئول عن نفقات البيت ، هذا في صورة وجود الزوج القادر على تلبية النفقات الضرورية ، أما في حال انعدامه أو اضطراره للتخلي عن عمله أو في حالة عجز دخله عن تلبية حاجيات البيت الضرورية ،

تلك الحاجات المتصاعدة فبأي نص شرعي تمنع المرأة من العمل الشريف ؟ خاصة وأن العديد من الشباب العامل قد يجد نفسه يائسا من الزواج لارتفاع نفقات المعيشة ، أفلا يكون عمل المرأة خاصة خلال فترة إعداد الزواج والفترة الأولى من الزواج على الأقل سبيلا لإقامة البيوت وانقاذ كثير من الشباب اليائس من الزواج بحكم ضآلة دخله وارتفاع تكاليف المعيشة ؟

هذا مع الحاحنا أن من مهمات المرأة الرئيسية التي لا يمكن لأحد أن يعوضها فيها هي رعاية الطفولة وإعداد الأجيال الجديدة .

ومن المهم في باب عمل المرأة ابداء الملاحظات الآتية – نحتاج إلى طرح آخر لقضية العمل ، في ضوئه تصبح المرأة القائمة على شئون بيتها لا تكاد تعرف للراحة طعما لا ينظر اليها على أنها عاطلة ، اذ وظيفة الأمومة ليست وظيفة هامشية بل هي حاجة ثقافية واقتصادية ، لقد بدأت بعض الدول كفرنسا تعتبر أن عمل المرأة بالبيت شغلا له حسابه في الدخل القومي العام فالأمومة ورعاية البيت وظيفتان اجتماعيتان من حق المرأة الأم ربة البيت على المجتمع أن تتقاضى أجرا مناسبا على جهودها .. ولماذا يعطى الطالب أو التلميذ منحة مالية تتيح له التفرغ لدراسته ولا تعطى المرأة الأم منحة تتيح لها التفرغ لمهمتها ، أليس المبرر واحدا وهو ما يهيئه كل منهما من خدمات مستقبلية للمجتمع ؟

— تعترض المرأة العاملة في مجتمعنا مشكلات كثيرة منها العمل المزدوج الذي تقوم به خارج البيت وداخله ، فمن واجب الرجل ان

يعينها في ذلك ، ولقد كان رسول الله ﷺ رغم كثرة مسئولياته يعين أهله في رعاية شئون البيت. وذلك حتى يعلم الرجال أن عمل البيت ليس نقيصة ..

ــ ان خروج المرأة المسلمة من بيتها للعمل وملاقاتها لكثير من المتاعب يعتبر تضحية ، ومن زوجها لها مقابل لصالح الدعوة الإسلامية فإن ضرورة وجود العنصر النسائي الإسلامي في المؤسسات التي يكثر بها النساء كالمؤسسات الصحية والتعليمية والاجتماعية ومراكز التجمع النسائي (طبيبة ، ممرضة ، معلمة ، استاذة مرشدة اجتماعية .. الخ) بغاية تبليغ الدعوة الإسلامية واظهار النموذج الإسلامي النسائي يفوق في أهميته حتى الضرورات الاقتصادية بالنسبة للحركة الإسلامية ، فعلى الأخوة والأخوات أن يتفهموا هذه الضرورة ويقدموا من أجلها التضحيات المطلوبة .. مما يجعل المصالح من وجود الأخت في هذه المؤسسات تفوق المخاطر والمحاذير ، فالمطلوب إذن أن نعمل على تكوين روح مواجهة لدى الأجيال الجديدة بعيدا عن روح الخوف والحذر والإسراف وسد الذرائع ، تلك الروح التي سادت في عصور الانحطاط وكبلت المجتمع الإسلامي خاصة وأن وجود المرأة في المؤسسة غدا أمرا واقعا فلابد من مواجهته بروح جريئة : روح الاقتحام « ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فانكم غالبون» بدل روح الهروب والحذر وإيثار السلامة « لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فإنا داخلون » .

ــ لابد أن تراعي في وضعية المرأة العاملة ذات الأولاد أوضاعها

الخاصة .. فلا يضحي بالبنين من أجل مكاسب اقتصادية فوجب على الدولة أن تتولى توفير الضمانات الكافية للمرأة لتقوم على هذه الوظيفة حتى لا يهدد الارهاق بنيتها الأنثوية ، والواجب كذلك أن تراعى الوضعية الأخلاقية العامة فتطهر المؤسسة شيئا فشيئا من دواعي الفتنة حتى لا تغدو التنازلات الأخلاقية سببا للترقيات ..

ــ يراعى في اختيار العاملين الكفاءة المطلوبة بقطع النظر عن الاعتبارات الجنسية ، فإذا استوت الكفاءة قدم الرجال ، فلا يرضى الإسلام أن يعمل النساء وأفواج الرجال عاطلون ، خاصة وأن المرأة تقدر على القيام برعاية البيت .

ــ تحتاج الحركة الإسلامية في الميدان السياسي والثقافي والاجتماعي (النقابي) إلى إبراز زعامات نسائية يخضن معترك الميدان السياسي والاجتماعي والثقافي متسلحات بخلق الإسلام بوعي عميق لمشكلات العصر ومطالبه ، خاصة وان الوجوه النسائية التي ابرزها النظام البورقيبي واللائي يتحدثن كثيرا عن عمل المرأة وحريتها لا عمل لهن غالبا لا داخل البيت ولا خارجه إلا التشدق بالشعارات ونشر الفتنة ، فما أحوج مجتمعنا إلى زعامات نسائية تقدمن للرأي العام فرصة ممتازة للمقارنة بين الروائع الإسلامية والمزاعم البورقيبية.

مطلوب من الرجال إعانة الذكيات الزاكيات حتى يتبوأن مقامات القيادة على كل المستويات .

المرأة والتعليم (الاكتفاء بأبسط مستويات التعليم) :

يميل كثير من الآباء إلى الحد من طموح الفتاة إلى نيل الدرجات العلمية العليا ، بحجة فساد أجواء التعليم وأن حاجة الفتاة إلى علم تقتصر على تعلم القراءة والكتابة . فما تفيدها الدرجات العلمية وهي تهيؤ لتكون ربة بيت ؟

وليس لهذا التصور البدائي اساس من الدين ولا من المصلحة وتوجيهات الدين للمسلمين ذكورا واناثا تجمع في حثها على طلب العلم بكل ضروبه والتبحر فيه ومحاولة حيازة قصب السبق في ذلك واعتبار أن ذلك من ارفع مستويات العبادة ما خلصت النية لله ، ولقد بلغت امهات المؤمنين رضوان الله عليهنّ إلى مستوى من فهم الدين ورواية النصوص ما قصر دونه فحول الرجال ولقد كان اهتمام عائشة رضي الله عنها إلى جانب اتقان الحديث وأحكام الشريعة بأدب العرب وبفنون الطب كبيرا .. فكانت فى الذروة من طبقات المجتهدين فكانت تعلم وتستشار في كل ذلك فمن أين أتت الدعوة إلى الحد من طموح الفتاة المسلمة والحيلولة دونها وبلوغ أقصى ما تسمح به طاقاتها الذهنية؟ إن ذلك لعمرى مخالفة صريحة لتوجيهات الدين وحدّ من حرية الإنسان وتعطيل لطاقات المسلمين ومساهمة ولو بغير شعور على استمرار سخافة عصر الانحطاط التي رسخت في المرأة شعور الضعف والخنوع وجعلت المرأة تمارس عملها التربوي غير مزودة بأبسط المعارف العلمية ..

إن تأكيدنا على ان من مهمات المرأة الأساسية هي الأمومة لا يعني منعها من التعليم أو الحد من طموحها بل إن ذلك سبب آخر يدفعنا إلى تمكينها من القيام بمهمتها الكبرى في ظروف افضل ، فضلا عن اننا نحن الإسلاميين اذ نحد من طموح الفتاة إلى المستويات العلمية العالية ألا نشعر بالتناقض الواقعين فيه ، فمن ناحية يود احدنا لو تمكن من عرض زوجته إذا اصيبت بمرض على طبيبة وليس على طبيب ، ويتمنى أن تدرس ابنته على معلمة واستاذة ومن ناحية أخرى يحول بين ابنته وبين ان تواصل تعليمها لتكون معلمة أو طبيبة أو استاذة أو ممرضة ؟

سبب آخر اضافي من شأنه ان يدفعنا إلى حث بناتنا إلى النيل من العلم اقصاه بقطع النظر عن قضية التشغيل ، فنحن لا نرى ضيراً ابدا ، ولا تبديدا للطاقات ان تقصر مجازة في الآداب أو العلوم عملها المهني على تربية ابنائها بل نتمنى ان تكون كل أم من هذا القبيل لأنها تكون كما قلنا أقدر على تربية ابنائها وضمان أن لا يتجاوزوها إذا وصلوا إلى مرحلة من العلم معينة ، فتبقى باستمرار قادرة على فهمهم وتوجيههم بعيدا عن عقلية الخرافة .. هذا إن لم تحتج إلى العمل فإذا احتاجت إليه تجد عملا لائقا ولا تضطرّ لأعمال خسيسة .

فهل درى الاباء خطورة ما يفعلون اذ يمارسون سلطة الأبوة ممارسة تعسفية فيجنون على بناتهم ويخرجونهّن من المدرسة مع قدرتهنّ على مواصلة الدراسة .

أما بالنسبة للإسلاميين بالذات فهناك سبب إضافي آخر يدعوهم إلى حث بناتهم وإخواتهم الداعيات إلى مواصلة التعلم إلى اقصى ما تسمح به امكانياتهنّ ألا وهو الدعوة الإسلامية ذاتها التي تكون الأخت اقدر على ادائها على أحسن وجه بين كل الأوساط كلما كانت مسلحة بالعلم والمعرفة .. وتستغلّ معارفها العلمية في تقديم مزايا الإسلام وتقريب مفاهيمه ، اما اتخاذ الجو المدرسي الفاسد سبباً لمنع فتياتنا من مواصلة التعليم فهو ثمرة عقلية عصر الانحطاط ، ثمرة العقلية الصوفية التي تؤثر أسلوب الهروب بدل أسلوب المواجهة .. هذا المجتمع نعم هو فاسد بكل مؤسساته ، ولكن ألسنا عازمين على اصلاحه فهل من سبيل إلى ذلك غير التسلح بالجرأة والشجاعة واقتحام تلك المواقع والمؤسسات بعقلية موسى لا بعقلية بني اسرائيل ﴿ **قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين**﴾ فأجابهم النبي الثائر ﴿**ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين**﴾ .

وفي مجتمع إسلامي يمكن ان تجد مشكلة تأخير الزواج الناجمة عن طول مراحل التعليم حلها في اختيار الزواج المبكر وهو مع بعض الاحتياطات لا يمنع مواصلة التعليم ..

ويحسن بعد ذلك التركيز على الملاحظات التالية :

ــ التعلم هو أداة فعالة لتحرير الرجل كما هو للمرأة من رواسب عصر الانحطاط .

ــ التعلم هو عنصر فعال في توسيع آفاق المرأة واخراجها من العالم الضيق حيث حشرها الإنحطاط فاشتغلت بالتفاهات .

ــ تقديم نموذج نسائي إسلامي على مستوى عال من العلم والثقافة هو افضل السبل بالنسبة للحركة الإسلامية لمجابهة التحدي البورقيبي وإبراز المهانة التي الحقها بالمرأة وتحويلها إلى سلعة مقابل تعلمها .

ــ من وجهة نظر إسلامية بحت لا يمكن قصر تعلم المرأة على مجالات دون أخرى .. وإنما كفاءة الفرد وحاجة المجتمع هما وحدهما المتحكمان في عملية التوجيه .

ــ نوع التعليم يتحدد على ضوء النموذج الاجتماعي الذي نريد وعلى اعتبار أننا نرمي إلى تحقيق مجتمع صناعي متحضر في إطار انسانية الإسلام فان تعلم الرجال والنساء ينبغي أن يتحدد على ضوء هذه الغاية ومن ثم فان دور الأمومة بالنسبة للمرأة وان كان يقضي بتمكينها من تعليم يؤهلها للقيام بهذا الدور – وهذا موضع نقص خطير في التعليم الحالي – فانه لا يمنع أبدا تخصصها في مختلف مجالات العلم والثقافة والصناعة .

ــ إن تعليم الأخت المسلمة ضرورة لتكون أقدر على فهم التطور وبالتالي أقدر على إبلاغ رسالة الإسلام واقتحام المؤسسات .

قضيـــة الاخـــلاط :

لقد اختلقت الكتابات الإسلامية المعاصرة وهي تحاول التصدي لتيارات العصر الجارفة التي لم تستطع هضمها، معتصمة بمواقع اجتماعية ريفية، اختلقت موضوعات فقهية لم تعرفها كتب الفقه القديمة وشغلت اذهان الناشئة المسلمة بمناقشتها، ومن ذلك الموضوع المسمى بالاختلاط بين الجنسين والتشديد في تحريمه على كل المستويات دون تحديد دقيق لهذا المفهوم معيدة إلى الأذهان فترة المجتمعات الإسلامية الانفصالية التي سادت في عصر الانحطاط بشكل أقل حدة مما ينادي إليه هؤلاء الإسلاميون المعاصرون. فماذا يعنون بالاختلاط؟ هل يعنون به وجود الرجل والمرأة في وضع مريب بعيدا عن الناس؟ أم يعنون به اجتماع الرجال بالنساء في اجواء من الإغراء، أم وجودهما في وضع تماس فيه الأجساد؟ إن كان الأمر كذلك فقد أصابوا في التعبير عن موقف الإسلام بمنع ذلك حرصا منه على طهارة القلوب والأعراض.. أما ان كانوا يعنون منع وجود الرجال والنساء تحت سقف واحد لتعلم العلم أو مدارسة شؤون المسلمين متأدبين بالآداب الشرعية في الهيئة والحركة، حتى وان يكن ذلك السقف سقف مسجد أو مدرسة أو ناد ثقافي أو مجلس تذكير وارشاد أو في ساحة جهاد أو مسيرة احتجاج، فقد أخطؤوا وصادموا الصورة التي نقلتها لنا النصوص الثابتة عن مجتمع الموحدين فيما تلا ذلك من الراشدين حيث كان المجتمع الإسلامي واحدا بعيدا عن فكرة المجتمعات

المنفصلة التي تولدت في عصور الانحطاط .. ففي المساجد والأسواق وساحات الجهاد كنت تجد مجتمعا واحدا من الرجال والنساء تسودهما علاقات عفوية جادة ، فكانت النساء يشهدن مجالس العلم بمسجد النبي ﷺ دون حواجز وكانت المرأة تعبر عن رأيها دون ان يطرح احد في مسجد النبي قضية هل ان صوتها عورة أم لا ؟ فكّن يجادلن في مجلس النبي وخلفائه . وكانت السيدة عائشة تتصدى للفتوى وكانت النساء يستشرن في امهات القضايا السياسية كما حدث في أمر خلافة عثمان كما رواه ابن كثير وكن يخرجن للعيدين ومنع الرجال من الوقوف في طريقهنّ إلى المسجد .. فلا عزل بين الرجال والنساء في صلاة أو مجلس علم أو سوق أو ساحة جهاد أو مجلس تشاور في أمور المسلمين ولا عزل بين الرجال والنساء فللمرأة ان تستقبل ضيوف الأسرة وتحدثهم وتخدم ضيوف زوجها وكل ذلك في إطار آداب الإسلام وتعاليمه ، وهي وان لم تفرض عزلة بين الجنسين فقد فرضت عفة النظر وطهارة القلب وضرورة ان يستشعر كل من الجنسين رقابة الله فلا يسلك سبيلا للإغراء واثارة الفتنة . فما يحل لمؤمن ولا مؤمنة ان يدفع أخا الإيمان إلى مواطن الردى فيعين الشيطان عليه[1] وإنما طبيعة العلاقات بين المؤمنين عموما علاقات تعاون على البرّ والتقوى ، وعلى مقاومة الشرور والعمل على الإطاحة بالطواغيت وإقامة معالم الحق والعدل والعفة .

---

(١) د. حسن الترابي : المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع .

ولنذكر ان الإسلام لا يصل إلى أهدافه في تطهير العلاقات بين الجنسين من التحلل والفساد عن طريق تكثيف الحجب وتحويل البيوت إلى سجون للنساء والحكم عليهنّ جميعا بما حكم به على اللاتي اتين الفاحشة .. بل أن تعويل الإسلام في تحقيق أهدافه وقيمه انما يقوم أساسا على التوعية والتربية العقائديتين واشاعة أجواء الطهر والعفة والتعاون على الخير في العلاقات البشرية وتعبئة المجتمع كله في حركة جهادية على المستوى النفسي والاجتماعي ، لا تعرف السكون أبدا مادام في الأرض شيطان يوسوس ونفس تضعف وطواغيت تتآمر ، وصدق رسول الله ﷺ : « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » .

ملحق : ١

اختلف العلماء في تفسير (وقرن في بيوتكن) فذهب بعضهم إلى أنها من الوقار وذهب البعض الأخر إلى أنها من القرار ، كما اختلفوا : هل هي خاصة بنساء النبي كما هو سياق الآية ، أم هي عامة للنساء وحتى على فرض عمومها فهي لا تمنع المرأة من الخروج لقضاء حاجاتها من تعلم وعمل وجهاد ودعوة ..

— إن مقولة الاختلاط طرحت كرد فعل على التميع البورقيبي ، فقد تم هذا الاختلاط في ظل فلسفة رأسمالية مادية تستغل جسد المرأة وتعاملها على أنها متاع رغم دعاوي التحرر . وأي تحرير ؟ كانت المرأة قديما متاعا لرجل واحد فغدت متاعا للجميع ..

والإسلام جاء ليحررها من هذه العقلية جملة ليجعل منها انسانا يعيش لقضية ويلتزم برسالة ويملك نفسه من التردي .

ـــ ان خروج المرأة قد فرضته ضرورات مختلفة ، ولقد جاء الإسلام بمباديء عامة لتنظيم المجتمعات وترك للفكر الإسلامي أن يستنبط الأشكال الملائمة لذلك التنظيم.. والمجتمعات الإسلامية عموما تتجه اليوم من الوضع الريفي إلى الوضع المدني ، ومن حالة انطماس شخصية الفرد إلى حالة السعي لتأكيدها ، وهذه الاتجاهات للتطور غلابة ، فواجب الحركة الإسلامية بدل التصدي لها ، فهمها واستيعابها والعمل على توجيهها بما يناسب مباديء الإسلام وقيمه العليا فالحديث عن منع الاختلاط أمام اتجاه هذه التطورات لا يدل على وعي كاف باتجاهاتها ..

ـــ نحن نرث ثقافة خلاصتها : المرأة إنسان فاسد ، يضاف إلى ذلك مشكل آخر أننا رجال ونساء نعيش مجتمعا ماديا يشتغل فيه كل من الرجل والمرأة لاغواء الآخر ويتسلط أحدهما على الآخر.. وعلى المستوى العالمي تسود علاقات استغلالية فهل يكون حل ذلك بالدعوة إلى عزل المرأة عن عالم الرجال ؟ أم بتعبئة كل الطاقات للقيام بالثورة التحررية الشاملة على المستوى النفسي والاجتماعي والثقافي والسياسي في إطار قيم الإسلام .

ـــ إن النظام البورقيبي أراد أن يصنع لنفسه تيجانا مزيفة فجعل من منع تعدد الزوجات مفخرة من مفاخره مع انه لم يفعل إلا أن نقل

التعدّد من مستوى الحلال إلى مستوى الحرام ، لقد راهن النظام البورقيبي على المرأة رهانا سياسيا لا رهانا حضاريا لم يتجاوز بها مرحلة الاستغلال ، استغلال صوتها في الانتخابات واستغلال قوة عملها في مؤسساته الرأسمالية بثمن بخس[1] » . والحركة الإسلامية لكي تظهر زيف هذه التيجان مدعوة إلى أن تتجاوز منطق ردود الأفعال والتصدي للبورقيبية من موقع الانحطاط فذلك خير دعم لها ، وإنما بالتصدي لها من موقع إسلامي يعيد للمرأة كرامتها وإنسانيتها ، (وإذا قلنا من موقع الإسلام وروح العصر : نعم لتعلّم المرأة ، نعم لعمل المرأة فالنتيجة : نعم للإختلاط بشروطه الإسلامية)[2] .

المـرأة الداعيـة :

غني عن البيان أن المرأة مخاطبة بهذا الدين على قدر المساواة مع الرجل وهي شقيقة له في الاعتقاد والعمل والجهاد من أجله ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ومن الضروري تأكيده في هذا السياق أن النساء يملكن طاقات هائلة للدفع ، فإما أن يدفعن المجتمع (الزوج ، والأخ ، والأب ، والأبناء) إلى معالي الأمور وعزائمها ، وإما أن يدفعنهم إلى المنحدرات

(١) طرف من مداخلة للدكتور حميدة النيفر .
(٢) طرف من مداخلة لصالح كركر .

والسفاسف .. ومن نسي دور خديجة في تثبيت النبي عليه السلام ودور عدد كبير من النساء في تحول الرجال إلى صفوف الدعوة مثل حمزة وعمر بن الخطاب وسواهما ودور أسماء في تثبيت ابنها عبدالله بن الزبير وهجرة النساء إلى الحبشة والمدينة وشهودهن أهم المعاهدات السياسية بين الرسول عليه السلام والأنصار؟ .. من نسي دور المرأة في الإعصار الإيراني وتقديمها ما يزيد عن ٧٠٠ شهيدة ولقد كان حضور المرأة في المعارك والمظاهرات يكتسب أهمية كبرى لدى الرأى العام؟ .. ومن ذا الذي ينكر دور المرأة السودانية فى عملية التحول الإجتماعى بقيادة الداعية سعاد الفاتح أو دور المرأة المصرية المسلمة بزعامة الداعية زينب الغزالي؟ وآخر أنباء بطولة المرأة المسلمة مظاهرات بنات المدارس في أفغانستان وتصدي الجيش لها بأمر من الضباط الروس فأبت شهامة الجندي الأفغاني النظامي أن يطلق النار على مظاهرة نسائية مما اضطر الضباط الروس أن يتولوا ذلك بأنفسهم غير أنه سرعان ما تحولت وجهة المعركة فثارت ثائرة الجنود الأفغان أمام مشهد فتاة تصرع برصاص ضابط روسي فانقضّ الجيش الأفغاني على الجيش الروسي وبدأت ثورة .

فليس صحيحا أبدا ما يشاع من ضعف المرأة وعدم تحملها لتبعات الدعوة ومحافظتها على أسرارها وثباتها على المحن فإن المتتبعين للسيرة يؤكدون أنه في الوقت الذي ارتدّ فيه عدد من الرجال في عهد النبي عليه السلام لم يسجل اسم امرأة واحدة ارتدّت[1] فلقد ارتدّ مثلا رجلان من المهاجرين إلى الحبشة وثبتت

(١) نقل لى ذلك أحد المتخصصين في السيرة د. أبو فارس .

زوجاتهما أم حبيبة ، وسودة فأكرمهما النبي عليه السلام بعد عودتهما ..

ملحق : ٢

لقد تجاوز العمل الإسلامي مرحلة النشأة في ميدان الرجال بعد سنوات طويلة من التجارب بينما هذا العمل حديث في ميدان النساء فمطلوب من المرأة ان تستوعب هذه التجربة بسرعة فكيف يمكن نقل هذه التجربة إلى الأخوات بدون عون من أخيها الرجل الداعية عبر مشاركتها في المجالات العامة والخاصة للقاء بما يتفق وضوابط الإسلام ودون تعسّف على النافع من أعراف المجتمع بعيدا عن روح الحذر والاستهتار .

ـ مطلوب من الأخوة أن يفسحوا مجالا للأخوات للتعبير عن مواهبهنّ فيمارسن كل ألوان النشاط الإسلامي الذي يقوم به الرجال وعدم حصرها في مجالات ضيقة ..

ـ نحتاج إلى تنمية روح الثقة في نفس الأخت حتى لا تبقى عالة على الرجل ، ولا تبقى في موقف المنتظر تنتظر الرجل ان يعطيها حقوقها ، يجب أن تشعر الأخت انها مخاطبة بالإسلام مباشرة دون واسطة .. وأن الحقوق تنتزع انتزاعًا .

ـ الحديث عن برنامج للتكوين النسائيّ يختلف عن برامج التكوين الرجالي هو تكريس للانفصال ودعوة إلى إسلام نسائي

وإسلام رجالي وقرآن رجالي .. الخ ، حتى الأبواب من الفقه المتعلقة بفقه النساء لا مناص للرجال من تعلمها وإلا وقعوا في الحرام .

— إن وضعية الأخت اليوم وضعية حرجة جدّا ، فهي لمظهرها الخاص محط نظر المجتمع وسخرياته فهي مغتربة في المجتمع وهي مغتربة أكثر من ذلك في وسط الجماعة فما يسمح لها بحضور الندوات والسهرات التي تطرح فيها مشكلات العمل الإسلامي فقبل مطالبتها بأن يكون لها دور في العمل الإسلامي لابد من تصحيح وضعيتها وإزالة هذا الاغتراب الذي تعانيه على مستوى الجماعة باشتراكها في مختلف ألوان النشاط والمؤسسات في حدود آداب الإسلام والترفق في مصادمة الأعراف .. وعلى مستوى المجتمع بفهمه ومعرفته وحسن التعامل معه لتطويره بدل الخنوع أمامه .

— لابد من دراسة الحركات النسوية في العالم الإسلامي والعالم قاطبة لمعرفة ظروفها ومدى ما وصلت إليه من أهداف .

تحتاج الأخت إلى توسيع آفاقها المعرفية لأنه بقدر ما تتسع تلك الآفاق بقدر ما تترشد حركتها .

إن التحدي المطروح على الحركة الإسلامية في تونس هو : هل تستطيع أن تبرز نماذج إسلامية نسائية كما نجحت في إبراز وجوه رجالية ، فيجب على العمل الإسلامي ان يتيح الفرصة للأخوات للتعبير عن مواهبهنّ واعانتهنّ على ذلك وتشجيعهنّ وان

يشعرن بأهمية ذلك في مجتمع يدعي أنه حرر المرأة فلا مناص من تقديم زعامات نسائية يجسدن مثالية الإسلام ويفضحن المخازي البورقيبية وسواء برزت هذه الوجوه النسائية عبر منظمة نسائية جديدة أو بالعمل على اقتحام المنظمة النسائية الموجودة ، وكذا سائر مؤسسات المجتمع .

ــ ويحسن في الأخير أن نذكر بالحجم الكبير الذي احتلته قضية المرأة والايصاء بها خيرا في آخر بيان ألقاه قائد هذه الدعوة عليه السلام في حجة الوداع تنبيها لنا على أهمية هذا القطاع العام من الأمة .. وانه إذا كان النساء شقائق الرجال فلا قيام للدعوة إلا بشقيها وإلا ظلت تعرج حتى تهوي .

انه لأمر عجيب ان يجد الداعي نفسه بعد أربعة عشرة قرنا لفي أشد الحاجة إلى أن يكرر مع النبي عليه السلام (أوصيكم بالنساء خيرا) ألسن شقائق الرجال ؟ أو ليس المجتمع نصفه نساء وعلى أيديهن يتربى النصف الآخر ؟ أليس صحيحا ان المرأة التي تحرّك السرير بيمناها تحرّك العالم بيسراها ؟ فأنى للتحول الاجتماعي الحضاري أن يعرف طريقه إلى مجتمعاتنا دون استنهاض وتعبئة لكل الطاقات لا سيما الطاقات المعطلة ، طاقة الأخوات ..

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة .. أولئك سيرحمهم الله ﴾ .

المرأة في تونس

حوار حول المرأة في ثانوية للبنات بتونس (*)

انعقدت في الأونة الأخيرة بإحدى ثانويات البنات بتونس ندوة موضوعها: المرأة والإسلام دُعِيَ إليها عدد من المشتغلين بالإسلام والمهتمين بقضاياه لمساعدة الفتيات وهن في المرحلة الثانية من التعليم الثانوي على التخلص من بعض الشبهات العالقة بأذهانهن حول مكانة المرأة ودورها في المجتمع الإسلامي.

(*) ثانوية البنات بمدينة القيروان سنة 1973 .

تولى أحد الأساتذة المشتغلين بالإسلام تقديم الموضوع كمنطلق للحوار قائلا بعد كلمة الترحيب بالحاضرين : « حوارُنا الليلة سيدور حول مكانة المرأة في الإسلام .. وباختصار أقول ان الإسلام فَرَضَ الحجاب على المرأة فلاً يَحِقُّ لها ان تُظْهِرَ غير الوجه والكفين كما فرض عليها ان تلازم بيتها لا تبارحه إلا لضرورة أكيدة . وها أنتن اليوم سَافِرَاتٍ تجبن الشوارع جيئةً وذهابا لا فرق بينكن وزملائكن من الفتيان .. فما موقف الإسلام منكن ؟ »

وتَمَلْمَلَتْ الفتيات وأحمَرّت وجوه بعضهن تحت وقع نظرات التقريع والتأنيب المسددة نحوهن .. ولازمن الصمت وتَهَيَّأنَ لتلقي المزيد من التقريع .. واستلم زمام الحديث إثْر ذلك اخصائي آخر من الأخصائيين الكبار في شئون الدين فحمد الله وأثنى عليه متخلصا إلى موضوع الحديث فأكد أن الإسلام اعترف للمرأة بالكرامة الإنسانية وانقذها من وضعيتها الجاهلية المنحطة ومكنها من حقوقها واعتبر أن هذه الكرامة لاتحصل عليها ما لم تلتزم الحشمة والحياء فتحتجب حتى لا يظهر من جسدها غير الوجه والكفين فما عدا ذلك عورة .. نعم ان الإسلام أباح للمرأة ان تتعلم فالعلم في الإسلام فريضة على كل مسلم غير انها ينبغي ان تقتصر من العلوم على ما يفيدها في دينها أي العلوم الدينية » .

وما ان انتهى من كلمته حتى كانت الفتيات في موقف مُحْرِج جدا فالهجوم عليهن كان عنيفا ، ولكن ما عسى ان يكون رد فعلهن وهن في موقف الضعيف المتلبس بجريمة ، وحيثيات الحكم تتلى

من طرف قضاة بارعين ! ما عسى ان يكونَ غيرَ طأطأةِ الرأس واللواذِ بالصمت العميق ؟ وذلك ما اقلق بال المشرفين على الندوة . انه هذا البرود وهذه اللامبالاة . فاين هي أسئلة الفتيات التي حضر هؤلاء المختصون للإجابة عنها ؟ فاضطر بعضهم إلى التدخل ومطالبة الفتيات أن يتقدمن باسئلتهن مهما كان نوعها اذ لاحياء في الدين (ولكن لا حياة لمن تنادي) وأمام هذا الموقف السلبي خطر ببال أحد المختصين خاطرٌ بادر إلى تنفيذه قائلا : « أنا متأكد ان أسئلة كثيرة تحوم في رؤوسكن ولكن الحياء يَمْنَعُكُنَّ من القائها .. لا بأس ساكفيكن الأمر واتولى نيابة عنكن طرح هذه الأسئلة : هل الإسلام يبيح تعدد الزوجات ؟ لماذا تَرِثُ المرأة نصف الرجل ؟ ما معنى هذه الآية ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامون عَلَى النِّسَاء .. ﴾ ؟ والآية الأخرى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجة ﴾ ؟ .. ولولاَ أن بعض زملائه غمزوه أن اكْتَفِ لاستمرّ في القاء الاسئلة .

فانبرى القوم وتأهبوا لصد هذا الهجوم الذي افتعله زميلهم فقال أحدهم : في قضية الميراث : إن التميز راجع إلى ان الرجل هو المكلف بالإنفاق على زوجته وأبنائه بينما المرأة في حِلٍّ من ذلك فتدخر نصيبها وتُنميه ويتكفل زوجها بالنفقة عليها وابنائها .. وأجاب آخر عن تعدد الزوجات : ان الإسلام اشترط في ذلك العدل فإن خيف عدم تحققه فالمنع ﴿فَإِنْ خفتم ألَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ومادام العدل بمقتضى الآية الأخرى مستحيل تحقيقه فالقضية منتهية :

﴿ وَلَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ .

بعد هذا الحوار المفتعل بين أهل الاختصاص تمالكت إحدى الفتيات نفسها واستأذنت في القاء هذا السؤال : سادتي أريد أن اعرف لماذا انتم مَعْشَرَ الرجال تَضَعون المرأة دائما في موقف الضعف وتنصبون انفسكم حماةً لها مدافعين عنها وكأنها طفل صغير يحتاج إلى الرعاية لماذا تنظرون إلى المرأة دائما على انها من مُكمِّلاتِ حياة الرجل وتابعٌ من توابعه ؟ ان المرأة قوية وتستطيع ان تمارس كل ما يمارسه الرجال من أعمال وهي ليست في حاجة اليه » .. واستعد الجميع للرد على هذه الفتاة الثائرة ، فقال احدهم : ان ضعف المرأة واضح بالمقارنة مع الرجل فهي لاتقوى على ما يقوى عليه من الأعمال الشاقة وألوان الصراع في هذه الحياة ومن ثم كانت حاجتها إلى الرجل لتستند إلى قوته في خِضَمِّ هذا الصراع .. واشترك في النقاش مدير المعهد مستدلا على هذا الضعف الطبيعي في المرأة بردود افعالها التي تختلف عن ردود افعال زميلها الرجل ازاء الموقف الواحد .. فهي مثلاً عندما تُرْتكِبُ مخالفة تقتضي تقديمها إلى مجلس التأديب تبادر إلى الاعتراف في الغالب بذنبها طالبة العفو ودموعها تنهمر وكثيرا ما تتحول إلى شهقات على حين ترى زميلها الفتى يراوغ ويتوسل بشتى الحيل للتخلص من التهمة الملقاة عليه وضرب مثالا آخر لتأكيد هذا المعنى : « تصوري نفسك قد عدت من المعهد أثر عطلة فوجدتيه مغلقا وقد قدمت من الريف ولا تعرفين احدا في المدينة

هل يكون تصرفك في هذا الموقف مُمَاثلا لموقف زميلك الفتى ؟ لا بدون شك » فردت احداهن بان المرأة اخذت تتغلب على ضعفها فحققت مستويات علمية باهرة تفوق الرجل احيانا » وضربت مثالا لذلك دكتورة شهيرة في الرياضيات ، فاجابها مدير المعهد : هل يكون رد فعل هذه الدكتورة مماثلاً لرد فعل زميلها في القاعة المجاورة والنور ينطفيء دفعة واحدة في قاعة الدرس ؟ لا بدون شك . وتدخل هنا أحد هواة الأدب ليدعم فكرة حاجة المرأة إلى الرجل فضرب أمثلة بأدبيات من الشرق والغرب حاولن الثورة على فكرة حاجة المرأة إلى الرجل فتمردن ولم يخضعن لأي رجل ، ولكنهن بعد تمرد طويل لم يَجِدْن مَنَاصًا من العودة إليه والاستسلام له . ولزيادة تأكيد هذه الفكرة عاد المشرف على الندوة إلى استلام زمام الحديث متوجها إلى الفتيات : ان الإسلام قد كفاكن مؤونة الصراع في هذه الحياة فلماذا تُجَشِمْنَ انفسكن مشقة هذا الصراع انت يا ابنتي في نظر الإسلام درة ثمينة وجوهرة مصونة فلا تعرضي نفسك للفحات الشمس وهبات النسيم فتؤذيك !! غير ان احدى الفتيات اتجهت بالحديث وجهة أخرى ملقية هذا السؤال : انكم تقولون ان الإسلام يفرض الحجاب على المرأة وان ذلك من لوازم إسلامها فكيف يمكن لنا التوفيق بين هذا الحجاب وبين ضرورة التعلم ؟ فعاد بعض المختصين إلى الإلحاح على ضرورة الحجاب وان الإسلام انما يبيحْ للمرأة ان تتعلم ضرورات دينها ، فهب أحد الحاضرين من غير المختصين قائلا : انا لست مع المنادين بتعرى المرأة ولكني لستِ أيضا مع الذين

يريدون العودة بسير التاريخ القهقرى .. ان التطور أيها السادة حتمية تاريخية فلماذا نقف في وجه التيار ؟ أليس العدل يقتضينا ان نقف موقفا وسطا فلا تفريط ولا إفراط «فالشر في التضييق والاطلاق» (تصفيق) وارتاح الكثير لهذا الموقف المعتدل ، أوَ ليس خير الأمور أوسطها ؟ ..

ولكن منطق الثورات الكبرى في التاريخ لا يعترف بالحلول الوسطى ولا يكتفي بترميم البناء بل يصمم على الإطاحة به لإعادة بنائه على أسس جديدة بمثال جديد لتحقيق غرض جديد ، هذا المنطق لم يجد بدا وقد انتهى الحديث إلى هذا الحد من التدخل واستلام زمام الموقف قائلا : سادتي أخواتي اسمعوا لي ان أُبْدِيَ بعض الملاحظات التي دارت في ذهني وأنا أستمع إلى ما قيل حول موقف الإسلام من المرأة . هذا الموضوع الذي كثيرا ما تصارعت حوله الآراء والمذاهب وكأنَّ الموضوع في غاية الغموض والتعقيد وليس الأمر كذلك وإنما أصبح كذلك بسبب عدم وضعه في المكان المناسب من الهيكل العام الذي انتزع منه وهو الإسلام .

الإســلام عضوية متفاعلة :

ان الإسلام لشديد الشبه بالعضوية الحية التي تتفاعل أجزاؤها وتتكامل حتى لا يكون لأي جزء منها أى معنى اذا انتزع من عضويته بالإضافة إلى ما يطرأ بسبب ذلك من تشويه واضطراب على العضوية بكاملها . فقيمة الأنف مثلا انما هي في وضعه المعين

من الوجه فإذا انتزعَ من موضعه ونظرت إليه بمفرده لم تفقه له معنى وأحدثت من ناحية أخرى تشويها كبيرا على الوجه قد يذهب بصورته الأصلية بل قد يذهب بشخصية صاحبه جملة . ومن هنا يذكر المؤرخون ان لو تغير أنف كيلوباتر لتغير وجه التاريخ . وهكذا بدا موضوع المرأة والإسلام غامضا مضطربا لأننا انتزعناه من الهيكل العام الذي كان جزءا منه وهو الإسلام ، الإسلام باعتباره نظرة عامة إلى الكون والحياة والإنسان تقتضي ان الله العليم الحكيم ليس خالقا وحسب بل هو خالق ومدبر لشئون مخلوقاته . هذه النظرة ينبثق عنها تنظيم شامل لحياة الفرد والجماعة الروحية والمادية وهذا النظام لا يستقيم أمره الا بتفاعل اجزائه وقيام كل جزء بوظيفته ضمن الهيكل العام حتى أن أي خلل يطرأ على جزء من الأجزاء فيعطله انما يعرض النظام كله للأنهيار ، ويبدو عندئذ كل جزء من اجزائه مُشْكِلاً غامضا يتبارى الفرسان لحله متوسلين بمختلف الحيل والتأويلات للتخلص مما هم فيه من حرج .. وموضوعنا الليلة هو مثال جيد على هذه الطريقة العقيمة لطرح الإسلام التي جعلت من موضوع المرأة مشكلا عويصا واشكاله انما اتى من نظرتنا الخاطئة إلى الإسلام باعتباره اجزاء مبعثرة يمكن فصل بعضها عن بعض ووضعها في هيكل جديد فتبدو آنئذ نافرة ناشزة .

مُنطَلَقٌ خاطــــئٌ :

لقد انطلق الحديث من اعتبار ان مجتمعنا هذا لا يحتاج لغير لمسات صغيرة كتطويل الزي ، وإزالة الحمرة ، حتى يصبح

مجتمعا إسلاميا وهذا وَهمٌ خاطئ فالمجتمع الإسلامي والذي يتولى الله فيه سلطة التشريع ، تشريع النظم والقوانين والقيم والموازين ، ما تعلق منها بالفرد والمجتمع والدولة ، وما تعلق بالناحية المادية والروحية ، فالإسلام لا يرتضي بل لايمكن له ان يعمل ويثمر بغير هيمنته على الحياة جملة .. وكل ماعدا ذلك فهو التشويه .. وأنه لخطأ جسيم يرتكبه كثير من المهتمين بالقضايا الإسلامية عندما يحاولون أن ينظروا إلى الإسلام من خلال هذا المجتمع المفتون أو يحاولون محاولة أخرى فاشلة – هي فاشلة وخطيرة أيضا – وهي انتزاع بعض أجزاء الإسلام ومحاولة تركيبها في هذا البناء الاجتماعي المنحرف فلا يؤدي الدور الذي كانت تؤدية قبل انتزاعها من هيكلها العام ويساء فهمها ويداخلها التشويه ، وسأضرب بعض الأمثلة على ذلك :

• قضية الزي : الإسلام لا يبدأ عمله مع المرأة مثلا بتطويل الزي الذي ينبغي أن تتزيى به أو تقصيره أو توسيعه أو تضييقه ولكن بتغيير نظرتها إلى الحياة والغاية منها حتى اذا ما أصبحت تنظر للحياة ليس باعتبارها سباقا مجنونا على اللذائذ والمتع الرخيصة بل على انها مجال لترقي الإنسان من المستوى البهيمي إلى المستوى الإنساني ، فرصة ليناضل فيها الإنسان ضد قوى الشر والبغي والباطل ، فرصة ليكشف فيها الإنسان عن طريق النضال الداخلي والخارجي أسمى ما في نفسه من معاني الخير والسمو التي تهيؤه ليكون في هذه الدنيا منارة للتائهين تهديهم سواء السبيل وفي الآخرة تهيؤه لحياة

الخلود مع صفوة البشر من النبيين والملائكة المقربين . دون أن ينسى أنه إنسان لجسده كما لنفسه عليه حقوق يؤديها من غير أن يكون عبداً للشهوات بل سيداً لها يلبي رغبَتَها على نحوٍ ترتقي معه الحياة ويُحْفَظ معه المجتمع .. حتى إذا ما استقرت هذه النظرة في نفس المرأة ظهر واضحاً في سلوكها وعلاقاتها مع الناس وفي مظهرها الخارجي ، وكان موقفها من الأوامر التي تتلوها في كتاب ربها موقف المؤمنين الصادقين « سَمِعْنَا وَأَطَعْنا » .

على اني أريد ان الاحظ ان الإسلام لم يحدد نوعاً خاصاً من الأزياء (كالسفساري أو الحايك) بل يكفي أن يكون ساتراً للجسم غير مثير (معطف من فوق سروال وغطاء للرأس مثلاً أو إزار طويل مع غطاء للرأس) .

• **التفريق بين مسألة الزي والتعلم** على اني اريد أن الاحظ انه ينبغي ان نفرق بين مسألة تعلم المرأة وبين مسألة الزي .. فإن الإلحاح على التزام الفتاة العفة والحشمة في زيها لا يعني حرمانها من حقها الشرعي في تعلم ماشاءت من العلوم أم أنه كُتب على الفتاة المسلمة دون نساء العالمين الا تحصل على شيء من العلم ما لم تتخل عن مقومات شخصيتها القومية ؟ وهل فرض ذلك على الفتاة اليابانية والصينية وقد حصلتا على أعلى المستويات العلمية مع محافظتهما على مقومات شخصيتهما ؟ لماذا يفرضْ على الفتاة المسلمة وحدها ان ترضى بمسخ شخصيتها مقابل حصولها على شيء من العلم .. ؟ من يفرض على فتياتنا هذا بالذات غيرُ الخضوع

لهيمنة الاستعمار الثقافي الغربي الذي اصبحت جميع شئون حياتنا العوبة في يده كقضية الأزياء التي تتشكل باشكال مختلفة مع كل فصل من فصول السنة فما يكون من نسائنا إلا اعلان فروض الولاء والسمع والطاعة ، خذوا مثلا تقليعة الزي الطويل – الماكسي – التي سرت بين عدد كبير من فتياتنا بدافع التقليد المحض ولم يَرَيْنَ في ذلك بأسا ولا حرجا ولم يقلن ان هذا الزي يعرقل سيرنا ويجعلنا نتعثر في الطريق ، وتلك كانت حجتهن عندما كان الأهل أو دعاة الإسلام يُطَالِبُهُن بالزي المتحشم الطويل اما وقد اقترح الزي الطويل من طرف مصمم الأزياء في باريس وليس من طرف رب العالمين فالسمع والطاعة !!!

الحقيقة اننا لا نُحِب ما نحب لأنه خير في ذاته ولا نكره ما نكره لأنه شر في ذاته بل لأن الغربيين اخذوا به أو تركوه .. ويكفي ان يتغير رأي الغربيين في كل ما نعتقد صحته أو فساده حتى يتغير رأينا .. تحضرني بهذا الصدد قصة حكاها أحد شيوخ الأزهر في سفر له مع ابنته في القطار إلي أحدى مدن مصر : كان الشيخ مشغولا بمطالعة أحد الكتب عندما جاءته ابنته متحمسة تطالبه بأن يذكر لها كل ما يعرف عن عمر بن الخطاب فتعجب من امرها لأنها لم تكن تفعل ذلك من قبل فذكرت له انها تعرفت في القطار على فتاة انجليزية معجبة بشخصية عمر بن الخطاب ، فقال الشيخ طالما اننا قوم نعيش على التقليد للغرب في ما نحب ونكره يبدو أننا لن نعود إلي الإسلام حتى يعتنق الغرب الإسلام فنُسْلِمْ آنئذٍ ونطبق الإسلام

في حياتنا لا لأن الإسلام حسنٌ في ذاته بل لأن الغرب قد أخذ به ..

وعندئذٍ سيبدو الأخذ بالإسلام مظهرا من مظاهر التقدم والرقي وليس علامة للتأخر والرجعية .

ان ما نراه من مظاهر التقليد المتفشية في حياتنا مردها إلى ضعف مقومات شخصيتنا الحضارية ، إلى فقدان الثقة بانفسنا ، وبعقيدتنا نتيجة النظرة السطحية التي ترسخت في اذهاننا عنها .. ولولا ذلك لكان اعتزازنا بهذه الشخصية حاميا لنا من الوقوع في مستنقع التقليد ..

تحضُرُني في هذه الصدد حادثة وقعت لأخت مسلمه في الجزائر سُئِلتْ من طرف بعض الشباب والشبات خلال انعقاد الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامي بقسنطينة سُئِلتْ عن سبب ارتدائها لهذا الزي (قفطان وغطاء للرأس) مع انها في مستوى علمي راقٍ (السنة الرابعة من قسم الرياضيات في الجامعة) فاجابت بكل وضوح واعتزاز : ارتديت هذا الزي .

١ - لاثبتَ وجودَ الإسلام في الجامعة .

٢ - لأنه اكثرُ مسايرةً للحضارة والتقدم ، فتساءل الحاضرون كيف ذلك ؟ فاجابت . إن الدارس لأحوال الشعوب البدائية يلاحظ إنها عارية ، لم تعرف الزي .. وأول مظهر يعبر به شعب من تلك الشعوب عن انتقاله من الحالة البدائية إلى الوضع الحضاري هو اللباس .. أفلا تكون الملابس التي تكشف معظم اجزاء الجسم

مُعَبرةً عن اتجاه رجعي وانتكاسة تصيب المدنية وتعودُ بالإنسان لقهقهرى إلى العهد البدائي وتكون الملابس الساترة تعبيرا عن اتجاه تقدمي حضاري يسمو بالإنسان عن عالم البهائم .. فضلا عن العراء قد افقد المرأة مكانتها في عين الرجل بابتذالها لنفسها بعد ان كانت حلما يطوف في خياله ويذكي فيه نار الشوق .

• ضعف المرأة وقوة الرجل :

إذا لم يكن الملل! قد اعتراكم فاسمحوا لي بكلمة حول ما قيل حول ضعف المرأة وقوة الرجل . واضحٌ ان المرأة تشعر في الغالب بضعفها ازاء الرجل وحاجتها إليه ولكن هل هذا الشعور بالضعف لدى المرأة طبيعيٌ فيها أم هو نتيجة المنهاج الذي يسلكه الرجل في تربيتها ؟ أليس يجوز أن يكون هذا الشعور نتيجة الوضعية الاجتماعية التي كانت تعيشها المرأة ؟ فلو غيَّرنا هذه الوضعية الاجتماعية وربينا المرأة على تحمل مسئولياتها وحدها دون الاتكال على الرجل لتغير هذا الشعور بالضعف والتبعية إلى حد كبير إلى شعور بالتفوق والاستقلال . أليس ذلك أقرب إلى الصواب ؟ تجيب الفتيات بحماس كبير : نعم ، نعم ، نعم .

لا ليس الأمرُ كذلك والا لماذا لم يقع العكس ، أي لماذا لم تكن المرأة هي التي اخضعت الرجل وسيطرت عليه فجعلته يشعر بالضعف ازاءها وتبعيته لها ، خاصة وإنها هي التي تتولى تربيته

وليدا ؟ فهل كانت هيمنته عليها صدفة أم هي راجعة إلى تكوين بيولجي ونفسي خاص .. الحق ان العلاقة بين الرجل والمرأة لا ينبغي ان ينظر إليها على انها علاقة حرب وصراع على السلطة وانما هي علاقة تكامل وتراحم وانسجام ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .

* كلمة أخيرة عن تعدد الزوجات : هذا الذي نظر إليه على انه نقطة ضعف في الإسلام يسهل اتخاذها منطلق هجوم عليه والحق غير ذلك. فالإسلامَ في كل تشريعاته يقف على اساس صلب من العمل على تحقيق مصلحة الجماعة .. ولو كان في ذلك ما يُؤذى بعض الأفراد ألم تروا إلى ما يفعل المهندس عند اقامَتِهِ سَدًّا من السدود كيف يحتاط لما عساه ان يتهاطل من امطار تزيد عما هو مقدر للسد أن يتحمله من مياه ، يحتاط لذلك بترك بوابة في السد تفتح كلما زادت كمية المياة على قدرة السد على الاحتمال ، لتصريف الكميات الزائدة ، تصوروا ماذا كان يَحِيقُ بالسد لو لم يفتح ذلك المتنفس لتصريف الكميات الزائدة ؟ لاشك انه سينهار ..

هذا هو الأمر تماما بالنسبة للبناء الاجماعي ، ان الزواج هو السد المنيع الذي يحول بين المجتمع والأنهيار .. وفي احوال المجتمع العادية تتعادل نسبة الرجال والنساء تقريبا فيكون لكل رجل امرأة

وهذا هو الوضع الطبيعي .. ولكن هذا الوضع الطبيعي قد يطرأ عليه ما يُحْدث الخلل فيه كالحروب مثلا التي تذهب عادة بمن هم في سن الزواج من الشبان ، فماذا عساه يفعل المشرع الحكيم لحماية البناء الاجتماعي من الانهيار بهذا « الفائض » من النساء ؟ يحكم عليهن بالقتل ؟ يبعث بهن إلى الكنيسة – ولا رهبانية في الإسلام ؟ أم يترك لهن الخيار بين حياة العزوبة الدائمة وما فيها من حرمان من لذة الأمومة وحياة الزوجية ، وبين الاشتراك مع أخرى في زوج واحد ، فإن فضلت بعضهن أو جلهن الحل الثاني تماشيا مع العمل بمبدأ أخف الضررين فبأي حقّ يتدخل المشرع لمنعهن من هذا الاختيار الحر الذي يلبي – جزئيا على الأقل – نداءات الفطرة في نفسها – من ناحية ، ويحمي البناء الاجتماعي من ناحية أخرى .. أليس في هذا الحل رحمة للمرأة وللمجتمع ؟ نعم فيه رحمة للزوجة الثانية ولكن ما ذنب الأولى حتى يُهينها زوجها ويسلط عليها امرأة أخرى ؟ المشرع الإسلامي الحكيم احتاط لذلك بأن جعل للمرأة أن تشترط في عقد الزواج ان لا يتزوج عليها أخرى .. أليست الرحمة بالإنسان – امرأة ورجلاً – تبدو واضحة جلية في كل ما أمر به الإسلام أو نهى عنه .. ولكنه التقليد الأعمى للغرب – على ما يشكو منه الغرب من تفكك وانهيار في النفس والمجتمع – والجهل – بخصائص هذا الدين هو ما يزعزع ثقتنا بهذا الدين ويدفعنا إلى هذا الموقف الذليل موقف التمسح على عتبات الغرب واللهاث وراءه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

لقد أراد الله لهذه الأمة أن تكون رائدةً تُمْسِكُ بيدها مقود العالم لتهدي به سواء السبيل وتقوده إلى الخير والحق والعدل والسلام يَتَفَيؤُ ظلال رحمة ربه فكيف نرضي لها موقف التبعية .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فلنحيينهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ .

التمزق الأسري في تونس ومجلة الأحوال الشخصية

هذا الموضوع مقطع من تشخيص شامل للمجتمع التونسي قام به المؤلف في المعتقل ولم ينشر بعد(١) وذلك من خلال الصّراع بين الأزواج بين الرّجال والنساء ، الصراع المرير على السّلطة ذلك الصّراع المرير الذي يعبر عن نفسه في أيسر أشكاله من خلال الخصام الزوجي والنكد الذي يكاد يكون السمة الغالبة على حياتهم

(١) البحث بعنوان : تحليل حضاري للمجتمع التونسي كتب سنة ١٩٨٤ بسجن الناظور وكان وثيقة رئيسية اعتمد عليها في وضع استراتيجية للحركة في مؤتمر الجماعة جانفي ١٩٨٧ .

الأسرية في هذا العصر . أمّا أشكاله الأكثر حدّة فتبدأ بهجر العش الزوجي فالطلاق مع ما في ذلك من انعكاسات كارثية على المجتمع كلّه وعلى الأطفال بشكل خاصّ ورغم ما اعتمده القانون من تضييقات مشدّدة للتقليل من ارتفاع نسبة الطّلاق فإن هذه النسبة في ارتفاع متواصل مهول إذ ارتفعت هذه النسبة إلى مايزيد على ١٠,٠٠٠ سنويا في السبعينات بينما لم تتجاوز هذه النسبة في سنة ١٩٥٧ بـ ٧٠٠ . وواضح أن ارتفاع عدد السّكان لا يفسّر هذه النّسبة وكما ورد أخيرا في دراسة عن مشكلة الطّلاق في تونس العاصمة «إن عدد حالات الطّلاق لم ينقص بل بالعكس لقد ارتفع رغم أن المبرر الذي قدم لانتزاع سلطة الطّلاق من يد الزوج وإيكاله إلى القاضي هو حماية الأسرة بإتاحة فرصة للقاضي ليراجع فيها الزوجين ويحاول الصّلح بينهما فإن الواقع يثبت أن نسبة المصالحات الناجحة ضئيلة جدًا فمن بين ١٤١٧ قضية طلاق منشورة في المحكمة الإبتدائية بتونس في الموسم القضائي ٨٠–٨١ لم تتم المصالحة إلا في عشر منها بينما كان الإعتقاد أن تعدّد الزّوجات وجعل العصمة الزوجية بيد الرّجل وعدم تغريمه لفائدة الزوجة هي الأسباب الرّئيسية للطّلاق وأن القضاء عليها سيقلّل من نسب الطّلاق والإحصائيات تثبت أن شيئا من ذلك لم يحدث بل تفاقمت هذه الظاهرة كما تتفاقم الأموال الربوية أضعافا مضاعفة .. ممّا يدل على وجود أسباب آخري هي المسؤولة بدرجة أولى عن سعادة الأسرة واستقرارها إذا توفرت ، وشقائها وتمزّقها إذا تخلفت وأهمّها قيام الزواج على رابطة قدسية : إن شعور كل من الزوجين

بقدسية هذه العلاقة وأن لقاءهما هو أساساً واجب ديني لتحقيق إرادة الله في استمرار الحياة وانتشارها ورقيها وقيامها على المودة والرحمة لا على الصراع والعنف وأن أوامر الدين هي التي ينبغي أن تحكم هذه العلاقة وتحدّد منزلة وحقوق وواجبات كل طرف فيها. لأن الزواج هو ارتقاع «بالجنس» من المستوى الجسدي إلى المستوى الرّوحي .. والزواج رابطة أوجدها الدّين وعلى أساسه قامت واستمرت والتجربة تثبت أنه كلما اهتز هذا الأساس الدّيني في مجتمع كلما اهتزت هذه المؤسسة واتجهت في طريق الزوال بزواله .. فهو أبعد من أن يكون مجرّد وظيفة جنسية أو اقتصادية » فضلا عن أن الدين يدعم مشاعر الثقة والاطمئنان بين الزوجين

مجلة الأحوال الشخصية : يقول وزير العدل محمّد شاكر بمناسبة إحياء ذكرى صدور مجلة الأحوال الشخصية : « إنّ إصدار مجلة الأحوال الشخصية ومختلف النصوص القانونية المتعلقة بالمرأة يستجيب لغرض جوهري هو إعادة الكرامة والإطمئنان إلى المرأة حتى يمكن لها أن تتفرغ لواجباتها نحو الأسرة والمجتمع . وأنّه سعيا من «المجاهد الأكبر» لإرجاع الطمأنينة للمرأة في حياتها الزوجية تم منع تعدد الزوجات ولإرساء حضانة الأبناء عند الطّلاق لمصلحة الطّفل وتمكين الأرملة من حقوق الولاية وتمكين المطلّقة من تعويض عما يخلفه لها الطّلاق من ضرر مادّي وأدبي ، وكذلك تمكين المرأة من حق الوقاية من الحمل في إطار ضمان الإستقرار النفساني داخل الأسرة » ونفى وزير العدل نفيا قاطعا أن يكون هناك

تفكير في مراجعة مجلة الأحوال الشخصية لأنه لا يمكن الرجوع إلى الوراء في ما تم من إصلاح اجتماعي في هذا المجال .

تعد مجلّة الأحوال الشخصية مفخرة النظام البورقيبي. وإحدى القوائم الأساسية له ويوشكون أنّ يرتفعوا بها إلى حدّ اعتبارها مقوما أساسيًا أو المقوم الأساسي للمواطنة في البلاد. أو في الحدّ الأدنى الشرط الضروري للتمتع بالحقوق الإنسانية كحق المشاركة في العمل السياسي .. ومع تصاعد المدّ الإسلامي تكونت جبهة علمانية عريضة للدّفاع عن هذا المكسب ضد من يعتبرونهم خطرا مهدّدا له من الإسلاميين . والتقييم العلمي لوثيقة على هذه الدّرجة من القيمة تحتاج بلا ريب إلى عمل أوسع من هذا الإطار الضيق الذي يحيط بنا . فنكتفي بالماحات :

ــ إن الوضع الإجتماعي الذي برزت في إطاره الزماني والمكاني هذه المجلة لم يكن محكوما – عامة – بقيم الإسلام وشرائعه رغم بعض المظاهر المحسوبة على الإسلام ... ومما لا ريب فيه أن المرأة في ذلك الإطار رزحت تحت وطأة مظالم كثيرة أصابها الإنحطاط كما أصاب الرّجل بل أشدّ فحرمت من شخصيتها كإنسان مسئول مسئولية كاملة عن وجوده ومصيره حرمت نور العلم والعرفان وحرمت حتى حقها في تقرير أمر زواجها وحرمت – غالبا – حتى نصيبها من الميراث وتصرفها فيما تملك – إن ملكته – واستبيحت إهانتها ومعاملتها بكل غلظة ووقاحة – وخاصّة

في الأرياف والبوادي ولم ير منها أو فيها بل لم تر هي في ذاتها الإنساني المتعالي غير لوحة ينبغي أن تعكف على تجميلها وتطييبها بحسب ذوق البيئة وبدنا جسدا تعكف على صقله وتتفنن فى عرضه . وأداة لامتداد وتواصل العائلة ومجالا لإظهار الفحولة والرّجولة .. ولا مجال في إطار ثقافة إجتماعية تقوم على هذه النظرة للحديث عن حقوق ثقافية وسياسية للمرأة .

١ - إنّه من المؤكد أن مجلة الأحوال الشخصية قد دفعت عن المرأة هذه المظالم وحرّرت العقول شيئا ما من آثار تلك النظرة الدونية . كما حرّرت المرأة ذاتها من بعض جوانب احتقار الذات واستنقاصها وأعادت إليها ثقتها بنفسها كإنسان مسئول مسئولية كاملة أو جزئية عن مصيره .

غير أنّــه :

ــ من باب المبالغة وترتيب النتائج على غير أسبابها أن نعتبر أن ما نالته المرأة من حق التعليم والشغل مثلا هو الأثر المباشر لمجلة الأحوال الشخصية، على نحو أنّه لو لم تصدر هذه المجلة ولم يكن الحبيب بورقيبة أوّل رئيس لجمهورية تونس بل كان « صالح ابن يوسف » أو الشيخ عبد العزيز الثعالبي أو محيي الدّين القليبي لمّا اجتازت قدم أنثى عتبة مدرسة ولا مؤسسة اقتصادية .. وكأن تونس بذلك ظاهرة فريدة في بلاد العرب والمسلمين التي لم يمن عليها القدر ببورقيبة . مع أن المرأة الآن تتعلم وتعمل في

المؤسسات الإقتصادية في كل بلاد العرب والمسلمين والعالم كلّه لأن هذه المكاسب هي الثمار الطبيعية في العالم الإسلامي لحركة الإصلاح الديني في القرن ١٩ . والنصف الأول من القرن العشرين . بل إن أوّل مدرسة لتعليم البنات في تونس هي مدرسة «البنت المسلمة» التي أنشأها الشيخ الزيتوني محمد صالح النّيفر رئيس جميعة الشبان المسلمين رضى الله عنه . بل إن أوّل منطقة في العالم قاطبة أعطي للمرأة لا مجرّد حق التعليم بل حق الإنتخاب وسوّى بينها وبين الرّجل هي الجمهوريات الإسلامية الديمقراطية في روسيا في أواخر العهد القيصري وعنها اقتبس الرّوس والغرب إعطاء هذا الحق للنساء . فمن باب الدّعاية الحزبية الفجة البحتة الرّبط بين هذه الحقوق المعترف بها للمرأة في كل مكان وبين مجلة الأحوال الشخصية . إن نسبة تعليم المرأة هي أرفع من تونس في أكثر من بلد عربي مثل سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ومصر ... الخ .

٢ - إن حركة التحرّر التي انطلقت مع النظام البورقيبي وكانت مجلة الأحوال الشخصية معبرة عنها كانت أبعد من أن تكون ثمرة تأمل واع وموضوعي لواقعنا متحررا من ضغوط الغرب والإعجاب بل الانبهار بنمطه للمدنية .. تأمل واثق من نفسه ومعتز بمدنيته ويتعامل مع الحضارات الأخرى من ذلك الموقع فيستمد من بيئته وتراثه عناصرهما الإيجابية متخليا عن السّلبيات وقد يستمد من المدنّيات الأخرى عناصرها وتقنياتها التي تناسب الواقع القائم .. أمّا الذي حدث في غمرة الحماس لما سمّي «بالإستقلال» فأمرٌ آخر تماما.

لقد انطلق العهد الجديد في حالة انتشاء بمظاهر مدنية الغرب وتأزم تجاه كل ما يمت للإسلام والعروبة بصلة ... وإذا ذكر الإسلام في هذا المناخ المفتون فإنما يذكر كعقبة في طريق التقدم ومن أجل استعمال بعض نصوصه بصورة محرّفة لتستخدم كطعم للجماهير يسوغ به مرارة الحلول الغربية ... ولذلك غلبت على هذه الحركة للتحرير النسوي طابع التقليد الأعمى والشكلانية الفجّة – المهم أن يثبت هؤلاء الزعماء لأنفسهم أنهم قد تخلصوا من انتمائهم لأمّة منحطة وأن يثبتوا لأولياء أمورهم في الغرب أنهم مثلهم متقدمون أو هم يجهدون أنفسهم للحاق بركبهم ... ولذلك كان الحرص الشديد على الزج بالمرأة في كل مجال حتى يشهد لنا بأننا نؤمن فعلا بالمساواة بين المرأة والرّجل . فزج بالمرأة في سلك الشرطة مع ماأحدث ذلك من مشاكل – وفي سلك الجيش وفي سياقة الحافلات والطائرات .. ولم تبق إلا دواميس المناجم وحقول النّفط الصحراوي حتى يتم القبول والإشهاد للنظام على أنّه فعلا متمدّن ... وأن التونسية حرة ! مع أن المرأة ليست محجوبة عن أى عمل شريف كالرجل ولكن دون تعسف على الطبيعة ..

٣ – ومن هنا فإن خطورة هذه المجلّة كما أكدنا في موضع آخر لا تكمن أساسًا في بعض نصوصها التي اسقطت على المجتمع إسقاطا بدون دراسة متأنية بصيرة[1] . لواقعنا الإجتماعي ومدى

(١) — مثل إباحة التبني .

حاجته لهذا التشريع، وما يمكن أن تنتج عنه من مضاعفات وإنما تكمن خطورتها أساسا في الموجة التي صاحبتها وسبقتها ولحقتها وساهمت هي في إلهاب نارها.. أعني موجة التغريب والثورة العمياء ضدّ كل تراثنا الفكري والثقافي والتشريعي والرّغبة الجنونية في تقويض البناء الاجتماعي الموروث لاكتساب بطولة «التجديد» ولو كان على حساب شخصيتنا الحضارية. كل ذلك لإرضاء قادة الحضارة أو لإرضاء أنفسنا أننا أبطال « تجديد » ... وكان طبيعيا أن تثمر هذه الموجة التغريبية – الشاملة لكل ميادين الفكر والثقافة والتشريع المفتونة المقلدة للأشكال الغربية – تحللا عاما في المجتمع ... وأن تتحول الحرّية إلى إباحية وتفسخ والعفّة والحياء إلى رجعيّة وتأخر وتخلّف.

وفي مثل هذا الجوّ الثقافي والنفسي تأتي جملة من التشريعات لتزيح ما بقي من عقبات قانونية في طريق الفساد. فيرفع عن الزّنا كونه جريمة في حق المجتمع ليتحوّل إلى مجرّد الاعتداء على عقد الزوجية. وخارج الحياة الزوجية لا يعتبر جريمة إلّا إذا حصل عن طريق الإكراه. ويأتي القانون المبيح المشجّع لتعاطي وسائل منع الحمل وإباحتها للجميع وبأسعار زهيدة جدّا– ويأتي قانون إباحة الإجهاض لتدارك ما عساه يكون قد حصل من خطأ في استخدام الوسائل الواقية من الحمل: ويكفي لنأخذ فكرة

= – وتأبيد الفراق بعد الطلقة الثالثة.

– وإباحة الزنا للراشدة » واعتبار القيام ضده حقا شخصيا للزوج المتضرر والزوجة .. والتخلي عن الحد الشرعي في ذلك.

– ومقابل إباحة التعدد الحرام وقع تحريم التعدد الحلال مهما كان المبرر » فالسجن والفراق عقوبتان لازمتان مع أنه كان يمكن التعامل بمرونة مع قضية التعدد لوضع حد لحالة =

عن الجزرة البشرية التي يديرها النظام ومؤسساته أن نعلم أنه في سنة ١٩٨٠ وحدها أزهقت عن طريق الإجهاض ٥٩٠٠٠ روحا هذا فقط ما تم إزهاقه في المؤسسات الرّسمية ودعك من غيره. ويأتي إضافة إلى ذلك تشريع آخر يتم الحلقة الجهنمية وهو عدم اعتبار البكارة في عقد الزواج وبالتالي فاكتشاف عدم توفرها في الفتاة العروس ليس مبطلا من مبطلات العقد ... ولكن إذا حصل وأفلتت هذه الفخاخ الشيطانية التي نصبت لاصطياده فولد خارج الإطار الزوجي .. لم يفت المشرع الحكيم التهيؤ لهذه الحالة بما يناسبها – فأعدّ مؤسسات خاصّة لاستقبالهم .. فترى أطفال بورقيبة للعناية بهم ريثما تتاح صفقة لتصديرهم إلى مؤسسات أوروبية كنسية وغيرها ... أو لمن يرغب في تبنّيهم من المواطنين – فقد أبيح التبنّي بقانون – أو لتربيتهم عساهم ينفعون في الدّفاع عن النظام ... ولا يعنى ذلك أننا ننادي بقتلهم وإهمالهم فهم ضحايا وإنما هو مجرّد رسم للإطار العام الذي ولدت فيه « مجلة الأحوال الشخصية »[1].

= الفوضى التي كان عليها وذلك باعتبار الزواج الثنائي (رجل – امرأة) هو القاعدة الطبيعية. ثم يتولى القانون تنظيم الاستثناءات ويمكن للقضاء الاشراف على ذلك التنظيم .. ووضع الشروط الكفيلة بمنع الفوضى والتحجير لولا جموح التقليد الأعمى ».

مع الملاحظة أن النصوص الأصلية لهذه المجلة يمكن تخريجها على مذاهب الفقة الإسلامي بنسبة ٩٥٪ كما اثبتت ذلك دراسة للأستاذ الطيوبي .. (غير منشورة).

(١) لا يعني هذا أن المجلة كلها شر فإن معظم نصوصها هو نسخ – مع التشويه أحيانا – عن مجلة الشيخ جعيط، بعد فصلها عن قيم وأصول الإسلام. الأمر الذى يثبت أنه سواء =

٤ – إن مجلة الأحوال الشخصية رغم أنها أدرجت ضمن حركة تحرير المرأة فإنها لم تتجاوز الأشكال والمظاهر الخادعة في الغالب . ذلك أنه للحكم على حقيقة هذه الحريّة المراد إكسابها للمرأة ... ينبغي أن نعرف نوع العبودية التي كانت تخضع لها فإذا كانت قد تخلصت منها فقد تحرّرت وإلّا فإنها لم تتحرّر بل نحن مخدوعون .

لايكاد المفكرون الباحثون في الحرية يختلفون في أنها تجاوز الضرورة ، بمعنى امتلاك الكائن لذاته وتحديد مسالكها واختياراتها عن وعي . فهل تجاوزت المرأة البورقيبية اعتبار نفسها أو اعتبار المجتمع والمؤسسات الرأسمالية لها كونها جسدا رأسماله مقاييس محدّدة في لون البشرة والعينين والشعر والطول والعرض والزي ... أليس ذلك ماكان يؤخذ على منزلتها في المجتمع القديم ؟ إذا كانت في المجتمع القديم موضوعا لمتعة واستغلال رجل واحد فهل هي اليوم أقل استعباداً وهي لا تتحكم حتى في اختيار نوع لباسها وزينتها وذوقها فكل ذلك تدبّره مؤسسات رأسمالية من وراء البحار كما تتحكم فيها في الدّاخل وتستغل جسدها أبشع استغلال مؤسسات الشغل والإدارة التي تعاملها في كثير من الأحيان كمجرّد جسد يشتهى ويختار لا على أساس مقياس علمي أو خلقي بل على نفس الأساس الذي تختار على

= جاء بورقيبة إلى السلطة أو غيره فإن مسألة حدثت تغييرات مهمة على أوضاع الأسرة آتية لا ريب فيها . ولكن بفرق أساسي بين أن تتأسس على أسس الإسلام وترتبط بتشريعاته وأخلاقياته وعقائده .. وهو ما كان مشائخ الزيتونة يعدونه، وبين أن تتم في سياق التغريب.. وهو ما قد حصل ..

ضوئه لوحة إن لم يكن كبش العيد . إنها تعاملها كسلعة في سوق الشغل والإعلام والسياحة مستغلة إحساسها الجمالي والعاطفي الرّقيق لاتخاذها طعما لاستجلاب الزبائن والترفيه على السوّاح وسوقا لا تنضب للاستهلاك اللاهث. وإذا عجز الدّخل البخس لتلك المسكينة عن مواكبة عروض السّوق وإغراءاته اللاهبة كان المقابل تدمير الخلق وتفليس العائلة . وبالتالي فإنّه ليس بإمكاننا أن نقول أن المرأة تحرّرت في مجتمعنا إذا فهمنا أن تحرير النساء مسألة تكمن عناصرها — كما يقول أحد المفكرين — في تحريرهن وانعتاقهن من إطار المفاهيم التي تجعل منهنّ مجرّد أجساد تشتهي وإماء للعرض... إن تحرير المرأة يعني انعتاقها من كل الأسباب التي تحكم عليها بالعبودية المسلطة عليها . واكتشاف الكائن الإنساني فيها والعيش وفق مقتضياته وهي مقتضيات تتجاوز الخصوصيات الجنسية ذكرية أو أنثويّة .. فالإنسان إنسان قبل أن يكون ذكرا أو أنثى . وإذا كان كل اصلاح يعطي أفضل ثمراته من القائمين عليه أنفسهم فعامة التونسيين لا يتناقلون عن بورقيبه وأركان مدرسته فى تعاملهم مع المرأة غير كونها أداة للترفيه والتسلية يستبدلونها بأسرع ما يفعلون بأحذيتهم ... أما الدعاوي العريضة وضروب النفاق فهم بلا منافس ولكن المرأة التونسية في عمومها لا تزال مثل عامة الرجال ضحية للبورقيبية وامتداداتها التى استفحلت ، وفي كفاح متواصل للذود عن شخصيتها الإسلامية العربية — والحمد لله ..

■ — يعسر فصل مجلّة الأحوال الشخصية وما حملته من دعاوى تحريرية نسوية عن التوجهات البرجوازية الرّأسمالية للنظام الجديد

وللأشخاص الذين قاموا عليه وكانوا مشبعين بتلك التوجهات . فلقد تمتعت المرأة في المؤسسات الرّأسمالية التي وافق النظام على قيامها وكانت جزء من مخطّط إدماج بلادنا ضمن السّيطرة الرّأسمالية بدعوى نقل الخبرات التقنية تمتعت بالأولوية في التشغيل . ففي مناقشة النوّاب لمشروع المخطّط الخامس ورد في تدخل النائب السّيد خليفة عبيد مايفيد بأن المرأة تمتعت بثلاث أرباع مواطن الشغل التي وقع بعثها أثناء المخطّط الرّابع الممتد من بداية ٧٣ إلى ٧٦ وليس ذلك حبا للمرأة من طرف المؤسسّات الرّأسمالية بقدر اندراج ذلك ضمن مخططها في استغلال وتدمير هذا المجتمع، فأجور النساء في المؤسسات الرّأسمالية حتى في البلاد الرّأسمالية المستقلة فضلا عن التابعة هي أدنى بكثير من أجور الرّجال وهي مخصّصة في غالبيتها المطلقة في الأعمال التافهة فضلا عن أن العاملات أكثر استعدادا لتنفيذ أوامر المؤسسة وأقل استجابة لنداء الإحتجاج والمطالبة عن طريق الإضراب وإن سيطرة المؤسسة الرّأسمالية على النساء يوفرّ بالإضافة إلى المكاسب المادّية القريبة يوفرّ للرّأسمالية الدّولية عاملا مهمّا للسّيطرة المستمرة على بلاد العالم الثالث - والإسلامي منه بشكل خاص - لتدمير بنيته الثقافية والإجتماعية بتدمير القيم التي تقوم عليها العلاقات بين الرّجل والمرأة . والعلاقات الأسرية عامّة .. فالأسرة هي المؤسسة الرّئيسية لعملية التطبيع الحضاري والثقافي للأجيال الجديدة ، والسيطرة على القيم التي تحكمها هي السبيل لتدمير النمط القديم وإحلال النمط الحضاري الغربي محلّه . وفي هذا الإطار الإستغلالي والتدميري الحضاري الغربي لمجتمعنا تندرج برامج تحديد النسل بكل أشكالها هذه السياسة التي

بدأت في تونس مع أول مخطّط في بداية الستينات حيث لوحظ أن النمّو البشري قد يكون عائقا لسياسة التشغيل . وفي السّبعينات خطت هذه السياسة خطوة أخرى بالرّبط بين سياسة التنمية والسيطرة على النمّو السكاني فأنشئت مؤسسة خاصّة لهذا الغرض وكانت هذه السياسة كما لوحظ في ندوة « جمعية المغرب العربي الكبير للدّراسات السّكانية المنعقدة بالرباط في النصف الثاني من شهر ١٢-٨٢ . وليدة اتجاه معيّن من طرف المموّلين لسياسات التنظيم العائلي في العالم الثالث من طرف الوكالة الأمريكية للتنمية والبنك العالمي والصندوق الأممي للأنشطة السّكانية وبعض الأجهزة الرّأسمالية الأخرى التي تشرف عليها الولايات المتحدة وتموّل سياسات التنظيم العائلي في العالم الثالث : وذلك لتحقيق جملة أهداف منها :

أ – الحدّ من النمّو السّكاني المتصاعد في العالم الثالث بسبب ضعف هذا النمو – في البلاد الأوروبية والولايات المتحدة وهي مجتمعات غلبت عليها الشيخوخة .

ب – هذا النمو السّكاني في العالم الثالث يمثل أكبر خطر على استقرار الأنظمة التابعة وينذر بالانفجارات الثورية .

ج – هذا البرنامج للإبادة الجماعية التي تقوم بها المؤسسات الرّأسمالية عن طريق علمائها – يمثل أفضل طريقة لاستغلال المرأة إذ أن التقليل من الولادات والانصراف عنها تماما وحتى عن الزواج – أجلا يضاعف انتاجية المرأة وينقص من غياباتها كما ينقص من مصاريف

الضمان الإجتماعي ويقلل من إمكانية انقطاع المرأة عن الشغل بعد المهارة التي اكتسبتها للتفرغ لتربية أبنائها - وفي كل ذلك توفير ونمو للرّأسمال.

د - وأخطر من ذلك تمثل سياسة تحديد النسل - بمختلف أشكالها قلبا للمفهوم الحقيقي للتنمية: فبدل أن تتجه السياسة التنموية إلى بحث الوسائل التي توفر للسّكان أفضل السّبل لاستغلال الموارد وتنميتها وتوزيعها بعدالة تتجه إلى البحث عن أفضل الوسائل للسيطرة على نموّ السّكان حفظا لأصحاب الإمتياز امتيازاتهم وبدل النظر للإنسان على أنه طاقة إنتاجية خلاقة (عقل وساعدان) تنظر إليه سياسة تحديد النسل على أنّه فم فاغر وبطن واسع. وبدل النظر للموارد على أنها غير محدودة بل تنمو بنمو المعارف العلمية والتقنية تنظر الرّأسمالية وأتباعها على أن الأمر عمومًا محسوب ولا سبيل لإنقاذ العالم من المجاعة - كما نادي في القرن الماضي «مالتوس» - إلا بتحديد النسل أو الإعراض عن الزواج جملة... تلكما وجهتا النظر اللتان دار حولهما الصّراع في بوخارست سنة ١٩٧٤ بين أنصار اسلوب النّموّ الرّأسمالي بزعامة الولايات وأتباعها ممن يعتبرون سياسات التنظيم العائلي ركنا أساسيًا للنموّ وبين العالم الإشتراكي والعالم الثالث - عدا الأتباع - ممن يدرجون تلك السياسات ضمن المخطط الإمبريالي للسيطرة على العالم الثالث ويلحون على أن المشكل لا يمكن فصله عن التحرّر من الهيمنة الإمبريالية والنضال ضدّها واعتماد أسلوب التخطيط العلمي لاستغلال الموارد والعدل في توزيعها.

ذ – وأشدّ من كل ذلك خطورة هو من ناحية تحوّل المرأة في العالم الثالث وخاصّة بلادنا إلى مخبر أو حقل تجارب لأختبار المستحضرات الكيمياوية التي تنتجها المؤسسات الرّأسمالية ومدى جدواها في السيطرة على النمّو السّكاني . ففي الوقت الذي تتبين فيه يوما بعد يوم الآثار المدمرة لهذه المواد الكيمياوية على صحة المرأة والعائلة حتى إن الإحصائيات تثبت أن ربع من يتعاطينها في الغرب قد توقفن عن ذلك بعد ماثبتت علاقتها بأنواع من السّرطان لاتزال هذه الحبوب بأنواعها تباع في الصيدليات عندنا بلاأدنى رقابة بأسعار أرخص من الخبز ولا يزال الإعلام المتواطىء يسدل ستارا من الصمت على المسكينات ضحايا هذه البرنامج الإمبريالي سواء ممن أصبن بالسّرطان أو الأمراض العصبية أو تشوه الأجنة أو ممن قضين نحبهن تحت مشرط أطباء مجرمين أبطال الوأد الحديث . ومن ناحية أخري فإن آثار هذا البرنامج يتجاوز السلبيات المادية الآنفة لتصب أساسا ضمن برنامج الغزو الفكري وتدمير الشخصية الوطنية والعقائدية والثقافية لشعوبنا . وما أحسب اليوم أن تونسيين كثيرين يتقبلون عقيدة أن الله هو الرّزاق دون حاجة إلى ضربٍ من التأويل أو التعطيل كيف يفهمون هذه الآية إذا قرأوها أو قرئت عليهم ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، إن قتلهم كان خطئا كبيرا** ﴾

[الأنعام]

وهل الحرج الملجيء للتأويل أو التعطيل لعقيدة الرزق ليس له مساس من قريب أو بعيد بالمفاهيم العلمانية التي تسربت إلى النفوس

من أبواب كثيرة منها برنامج التنظيم العائلي ، هذا دون الحاجة للعودة إلى الآثار المدمرة لهذا البرنامج على السلوك الخلقي والجنسي والعائلة وأنّه ليحق للرّأسمالية أن تعتز بأنها غيرت خريطة المجتمع التونسي من خلال تغييرها لخريطة العائلة خاصّة .

٦ - من كل ماسبق نؤكد أنّه ولئن كانت ولا تـزال وضعية المرأة ووضعية المجتمع ككل تستوجب تغييرا بل ثورة وهو تغيير لم يكن غائبا عن اهتمامات حركة الإصلاح الدّيني في العالم الإسلامي قاطبة ومنه - بالطّبع - تونس وخير شاهد على ذلك كتابات الأفغاني وعبده ورشيد رضا والبنا والشيخين الطاهر بن عاشور والفاضل بن عاشور وتجاوز الأمر مرحلة التوعية العامة إلى مرحلة التقنين فظهرت مجموعة مجلات للأحوال الشخصية أهمها في حدود علمنا المجلة التي أشرف عليها المفتي المالكي الشيخ عبدالعزيز جعيط[1] ، وهي مجلات انطلقت من نصوص الشريعة وعن التراث الفقهي الإسلامي - بدون التزام مذهب واحد - لتلبية احتياجات الواقع المتعفّن .. فكانت اجتهادات إسلامية وتطوّرا تشريعيا منطلقا من ذاتية الأمّة واحتياجاتها وليس نقلا عن الغرب واسقاطا متعسفا على الواقع .. قلنا ولئن كانت وضعية المرأة والمجتمع تقتضي تغييرا بل ثورة .. فإن المجلة البورقيبية المعروفة بمجلة الأحوال الشخصية كانت

---

(١) والمجلة العربية الصادرة عن الجامعة العربية مستخرجة من الشريعة على اعتبار أنها أهم رباط لوحدة العرب وكذلك المجلة الجزائرية وهي الأخرى مستخرجه من الفقه الإسلامي ... الخ . وكذا « المدونة المغربية » .

من خلال ما حف بها من أجواء استجابة لا وطنية لمطالب وطنية.. ولم تكن ثمّرة تطور ذاتي للمجتمع التونسي ولا تلبية لمطالب وضغوط إنسانية . بل إنها كانت جزءًا متدرجاً ضمن حملة أخرى لتغريب مجتمعنا والقضاء على ذاتيته العربية الإسلامية وكانت صفقة الإستقلال جزءًا من تلك الحملة لتنقل البلاد من مرحلة الاستعمار المباشر إلى مرحلة أشدّ واخبث هي مرحلة الاستعمار الغير مباشر.. وحتى المثقفون العلمانيون والمدافعات عن هذه المجلة بكل حماس والذين تملكهم الرّعب ممّايسمونه انبعاث الموجة السلفية العارمة وجدوا أنفسهم مضطرين للاعتراض على بعض تطورات هذه المجلة، خاصّة التعديل الذي أدخل عليها سنة ١٩٨٢ والقاضي بتمليك المطلّقة بيت الزوجية وتمتيعها بغرامة عمرية.. مما من شأنه أن يمثل عقبة أخرى تصرف الرجال عن الزواج . إن رهان النظام على المرأة لم يكن رهانا حضاريا إنسانيا وإنما كان رهانا رأسماليا سياسيا .. لقد زعم أنه يناضل لإزالة مظلمة تاريخية لحقت بالمرأة وهي فعلا لحقت بالمرأة بل بالمجتمع كله – ولكنه مازاد على أن أزال بعض أشكالها مضيفا إليها مظالم وسيئات أفدح .

إن المرأة كما تقول السيدة زينب الحمامي لم تحقق شيئا كبيرا من وراء مجلة الأحوال الشخصية .

هل تحل وظائف القيادة للمرأة؟

قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ (سورة التوبة : الآية ٧١).

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (سورة الحجرات: الآية ١٣).

وقال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ (سورة النساء : الآية ٣٤).

وفي الحديث « **ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة** » .

وفي الحديث أيضا : « **النساء شقائق الرجال** » .

تبدو ظواهر بعض النصوص ومنها المتعلقة بمكانة المرأة في المجتمع وعلاقتها بالرجل متناقضة، فعلى حين يؤكد بعضها تبعية المرأة للرجل زوجًا كان أو أبا أو أخا أو إبنا ، حتى لكأنها فاقدة للأهلية المدنية وللمسؤولية أمام الله والناس ، ولا مجال للحديث إذن عن استقلال لشخصية المرأة ... وتأتي آية القوامة على رأس تلك النصوص .. مقابل ذلك يعلم من له أدنى المام بالإسلام توافر عدد آخر – ليس بالقليل – من النصوص المؤكدة على أن المرأة مخاطبة مباشرة بنصوص الإسلام وتكاليفه، وانها مسؤولة مسؤولية دينية ومدنية كاملة على وجودها ومصيرها – على معتقداتها وسلوكها ، سواء تعلّقتْ تلك المسؤولية بمسائل شخصية كالزواج والطلاق واكتساب المال والتصرف فيه، أو تعلقت بالشؤون العامة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهو الأصل العظيم لمسؤولية الفرد المسلم – رجلا كان أو امرأة – المسؤولية الاجتماعية ، المسؤولية على الأمة بل على الإنسانية والكون .. وأنه على هذا الصعيد لا مقياس للتفاضل بين الناس في الدنيا والآخرة بالجنس أو اللون .. وإنما التمايز بحسب ما يقدمه الفرد من نفع للمجتمع والإنسانية ابتغاء وجه الله .. ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وفي الحديث « **إن الله لا ينظر إلى صوركم . ولكن إلى قلوبكم وعملكم** » والحقيقة أن علماء الأصول والتفسير والفقه

متفقون على أن خطاب التكليف يستوي فيه الرجال والنساء . [انظر مقاصد الشريعة للشيخ العلامة الطاهر بن عاشور] .

وكان ذلك جليا كل الجلاء لدى الجيل الأول الذي تربى على يد النبي ﷺ وحمل راية الإسلام .

عن عبد الله بن رافع قال كانت أم سلمة تحدث أنها سمعت النبي ﷺ يقول على المنبر وهي تمتشط : « أيها الناس » فقالت لماشطتها كفِّي رأسي (أي اجمعي أطرافه) فأجابت الجارية : إنما دعا الرجال ولم يدع النساء . فقالت أم سلمة : إنّي من الناس . [رواه مسلم] .

وإذن فالخطاب إلى المؤمنين أو المسلمين أو الناس – وسائر الصيغ التكليفية العامة – يشمل الرجال والنساء على حد سواء.. فالعموم والمساواة هي الأصل عدا ما تعلق به خصوص للرجال أو للنساء ..

وفي صدد الحديث عن المشاركة السياسية للمرأة يحسن بنا أن نتطرق إلى المطالب الثلاثة الآتية :

المطلب الأول : المشاركة العامة للمرأة في الحياة السياسية .

المطلب الثانى : مشاركتها في الوكالة عن المؤمنين أو طائفة منهم في المجلس النيابي .

المطلب الثالث : حقها في الولايات العامة ومنها رئاسة الدولة ..

المطلب الأول : حق المرأة بل واجبها فى المشاركة العامة فى الحياة السياسية :

والحقيقة أن مجرد طرح هذا الموضوع يعبّر عن أزمة في بعض أوساط المسلمين ، أزمة تأقلم مع العالم الحديث ورفض له بالجملة حتى ما كان قد سبق الإسلام إليه وأكدته تعاليمه وعاشه حياة ، مثل مشاركة النساء في الحياة السياسية .

لقد ظهر الإسلام دعوة دينية تهدي الناس إلى الإيمان بالله وتوحيده وعبادته . غير أن هذه الدعوة مثلت ثورةً اجتماعية وسياسية غيّرت حياة العرب والشعوب التي آمنت تغييرًا شاملا عميقا .. الأمر الذي جعل المجموعة الأولى التي آمنت به– وكل مجموعة حملت نفس القناعات في أي بيئة أخرى– أشبه ما تكون بالأحزاب الثورية المعروفة في عصرنا، باستهدافها لا مجرد تغيير الأفراد والعلاقات بينهم وإنما تغيير السلطة أيضا... فكان الانتماء للدين الجديد هو بحق انتماء لحزب ثوري ودخول في معارضة جذرية للقوى التقليدية المحافظة، أفكارًا أو علاقات وأنماط حياة .. بل في صراع معها مرير .. فكان الانتماء لهذا الحزب الثوري ثورة على النفس وعلى البيئة والعالم .. وأدركت قوى المحافظة خطر هذه الأفكار الجديدة والجماعة القائمة عليها، وقيادتها ذات المنهج الثوري، فسلّطت عليها ما سُلّط اليوم على قوى التغيير من طرف القوى المحافظة في البلدان المتخلفة، من تشويه لسمعتها وتسفيه لمبادئها ومحاصرة لها وتجويع – ثم القمع والتعذيب والتهجير – إلى حد إعلان الحرب ضدها وملاحقتها في الخارج . فكان

على جماعة هذا الحزب الثوري أن يزيدوا التفافا حول قيادتهم واستماتة في الدفاع عن مبادئهم .. وتحمل ما يسلط عليهم من بلاء ، وممارسة أقصى درجات التضامن والبذل .. لا يصرفهم ذلك قيد أنملة عن مبادئهم والدعوة إليها والتفنن في إيصالها ، والبحث لها عن قواعد ومرتكزات خارج محيطهم الضيق بعد أن استعصى على الدعوة .. حتى إذا ظفروا بها وعقدوا تحالفا مع أهلها لتجسيد مشروعهم في مجتمع ودولة ، حملوا السلاح في الدفاع عن مشروعهم ودولتهم .. وخاضوا غمار حروب طاحنة ضد أعدائهم دفاعاً عن أنفسهم ونشرا لدعوتهم .. حتى إذا أفضى القائد – صاحب الدعوة ورئيس الحزب – إلى ربه اجتمع أهل الحل والعقد من أصحابه يتشاورون ، فلم يختلف منهم أحد في ضرورة استمرار المشروع .. دعوة ومجتمعاً ودولة وقيادة .. وهكذا استمر المشروع . دعوة ودولة . ولقد كانت المرأة مشاركة في هذا المشروع الثوري منذ ولادته وفي كل أطواره .. الدعوية والجهادية .. فآمنت ودعت وامتُحِنت ، وكانت أول من استشهد .. وهاجرت إلى الحبشة ، وشهدت أهم اجتماع في تاريخ الإسلام، انبثق عنه اتفاق الهجرة إلى المدينة وإقامة الدولة الإسلامية «اجتماع العقبة الثانية» وحملها إيمانها بالدين الجديد وانتماؤها إلى حزبه، على التضحية بكل ما تتمسك به المرأة عادة من أهل وسكن وزوج وذرية ومال واستقرار .. وشهدت كل وقائع الإسلام وكانت إلى جانب القائد تشير عليه. وأنقذت مشورتها أحيانا من أزمات شديدة في حياة الجماعة ، وكانت أهم من استوعب ونقل إلى الأمة علوم الإسلام.. وأنفقت، ودعت ، وجاهدت ، وهاجرت ، واضطُهِدت ، ووقفت

المواقف المشهودة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووليت الوظائف المهمة كقضاء الحسبة ، مع أن القضاء من الولايات العظمى .. واستشيرت في تولية الخلفاء .. وقادت معارضة مسلحة في عهد هو أفضل العهود وضد خليفة من أعظم الخلفاء .. وكان تحت إمرتها رجال من أعظم الأصحاب والمبشرين بالجنة .. وإذا كان كل ذلك لا يعد مشاركة سياسية فماذا عساها تكون المشاركة السياسية؟! وهل من نشاط في حياة ذلك الحزب الثوري في كل أطوار نشأته وهو دعوة ، واستوائه وهو دولة صغيرة .. ثم انتشاره أيدولوجية عالمية تستهدف تحويل العالم كله .. أفكارا وعلاقات ومؤسسات .. هل من نشاط لم تشارك فيه المرأة بنصيب .. ؟ هل لكون الحياة السياسية فى تلك العهود لم تعرف أشكال التنظيمات السياسية المعاصرة ، وبعض شكليات الصراع السلمي على السلطة ، مثل الانتخاب وصناديق الاقتراع .. هل ذلك مبرر كاف لحرمان المرأة المسلمة من المشاركة السياسية بالكلمة والمسيرة ، أو الانتخاب أو الثورة المسلحة ضد الظلم والظالمين ؟ كلا . اللهم إلّا أن يتنازل المسلمون عن عقيدة لا يختلفون في الإيمان بها أن الإسلام جاء لكل زمان ومكان .. والعبرة بالمسميات لا بالأسماء ..

أما النصوص الدالة على حق المرأة المسلمة فى المشاركة فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، فهي أضخم ما يمكن أن يتسع له هذا الفصل .. ويكفينا أن نتفق أن الأصل في الأحكام الإباحة ، أي الحرية ما لم يرد نهي .. وأن الأصل فى الأحكام المتعلقة بالمؤمنين والمؤمنات المساواة ،

مالم يرد استثناء مخصص .. فما بالك والنصوص لم تحط بها عددًا المطولات .. وانظر مثلا فى أهم وأروع وأجرأ مدونة معاصرة في حقوق المرأة، قد مثلت ثورة في هذا الباب وطوراً جديدًا من أطوار الفكر الإسلامي المعاصر في موضوع المرأة .. أعني « **تحرير المرأة في عصر الرسالة** » الكتاب القنبلة والمنارة .. بأجزائه الأربعة .. ومع أن صفحاته قد تجاوزت الألف وثلاثمائة صفحة من القطع الكبير فإنه لم يستوعب من نصوص الحديث المتعلقة بالمرأة غير ما ورد فى صحيح البخاري ومسلم فقط .. مقتفيا طريقة البخاري في الاكتفاء – غالبا – بإيراد الحديث في الباب الواحد والتعليق عليه من خلال اختيار عنوان له ..

والحقيقة أن القرآن بنصوصه العامة وهو دستور الأمة قد حسمت نصوصه هذا الموضوع. ألا تكفي هذه الآية العظيمة للقطع بحق المرأة بل واجبها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهما الأصل الأعظم للدعوة إلى الله بكل وسائلها .. الفردية والجماعية ، السلمية والحربية .. وبكل أبعادها : الفكرية والسياسية والأخلاقية .. الخ .. الآية المقصودة هي الواردة في توطئة هذا الموضوع ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** .. ﴾ أليس مخجلا بعد نزول هذه الآية بأربعة عشر قرنا ، وبعد ما أنجز كفاح الشعوب والعقول من أجل التحرر والقضاء على مخالفات الإنجازات ، في التميز بين البشر باللون والجنس .. وكان للإسلام السهم المعلى في هذه الإنجازات التحريرية ومنها تحرير المرأة – ولا ينفي ذلك وجود انحرافات – أليس مخجلا أن تصدر

الفتاوى بتحريم مشاركة المرأة في العمل السياسي ، وحتى قيادة جملها ... بينما المرأة الإسرائيلية تغير على مدننا ومساجدنا ؟! الحمد لله أن تيار الحرية يتقدم ويتسع باسم الإسلام وفي إطاره ..

أما المطلب الثاني أى مشاركة المرأة المسلمة ليس كناخبة بل منتخبة وكيلة عن قومها .. عن حي ، أو قرية أو مدينة أو عن منظمة نسائية أو مشتركة .. فقد منع من ذلك قوم من أهل العلم منهم مولانا أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - وأجازه آخرون مثل شيخينا العظيمين : الشيخ محمد الغزالي ، والشيخ القرضاوي ، وهما معدودان في الحركة الإسلامية المعاصرة من أهم رموزها إن لم يكونا أهمهم على الإطلاق .

يقول الدكتور القرضاوي :

(هناك من يستدلون على منع المرأة من الترشيح للمجلس النيابي، بأن هذه ولاية عامة على الرجال وهي ممنوعة منها ، بل الأصل الذي أثبته القرآن الكريم أن الرجال قوامون على النساء ، فكيف نقلب الوضع وتصبح النساء قوامات على الرجال . وأود أن أبين هنا أمرين :

الأول : أن عدد النساء اللائى يرشحن للمجلس النيابي سيظل محدودًا ، وستظل الأكثرية الساحقة للرجال ، وهذه الأكثرية تملك القرار وهي التي تحل وتعقد فلا مجال للقول بأن ترشيح المرأة للمجلس سيجعل الولاية للنساء على الرجال[1]

---

(١) مما تجدر ملاحظته أن المتبوآت المناصب العليا في كل دول العالم على كل الأصعدة عددهن محدود جدا .

الثاني : إن الآية الكريمة التي ذكرت قوامية الرجال على النساء إنما قررت ذلك في الحياة الزوجية فالرجل هو رب الأسرة وبدليل قوله تعالى ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ فقوله ﴿ **وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ يدلنا على أن المراد القوامة على الأسرة ، وهي الدرجة التي منحت للرجال في قوله تعالى ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة** ﴾ أما ولاية بعض النساء على بعض الرجال خارج نطاق الأسرة فلم يرد ما يمنعه ، بل الممنوع هو الولاية العامة للمرأة على الرجال) .

(والحديث الذي رواه البخاري ﴿ **لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة** ﴾ إنما يعني الولاية العامة على الأمة أي رئاسة الدولة .. كما تدل عليه كلمة (أمرهم) فإنما تعني أمر قيادتهم ورئاستهم العامة . أما بعض الأمر فلا مانع أن تكون للمرأة ولاية فيه، مثل ولاية الفتوى أو الاجتهاد أو التعليم أو الرواية والتحديث أو الإدارة ونحوها، فهذا مما لها ولاية فيه بالإجماع ، وقد مارسته على توالي العصور ، حتى القضاء أجازه أبو حنيفة فيما تشهد فيه، أي في غير الحدود والقصاص . مع أن من فقهاء السلف من أجاز شهادتها في الحدود والقصاص ، وهذا يدل على عدم وجود دليل شرعي صريح يمنع توليها القضاء، وإلا لتمسك به ابن حزم وجمد عليه وقاتل دونه كعادته) .

(وسبب ورود الحديث المذكور يؤيد تخصيصه بالولاية العامة فقد

بلغ النبي ﷺ أن الفرس بعد وفاة أميراطورهم ولوا عليهم ابنته ، فقال : « لن يفلح قوم .. ») .

(ومادام من حق المرأة أن تنصح وتشير بما تراه صوابا من الرأى ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقول هذا صواب وهذا خطأ بصفتها الفردية، فلا يوجد دليل شرعي يمنع عضويتها في مجلس يقوم بهذه المهمة. وما يقال من أن السوابق التاريخية في العصور الإسلامية لم تعرف دخول المرأة في مجالس الشورى، فهذا ليس بدليل شرعي على المنع ، وهذا مما يدخل في تغيير الفتوى بتغير الزمان والمكان. والشورى لم تنظم في تلك العصور تنظيما دقيقا لا للرجال ولا للنساء) .

(والشق الثاني من مهمة المجلس (بعد المحاسبة والنصح) يتعلق بالتشريع ، وبعض المتحمسين يبالغون في تضخيم هذه المهمة زاعما أنها أخطر من الولاية والإمارة، فهي التي تشرع للدولة، لينتهى إلى أن هذه المهمة الخطيرة لا يجوز للمرأة أن تباشرها . والأمر في الحقيقة أبسط من ذلك ، فالتشريع الأساسي إنما هو لله تعالى وأصول التشريع الآمرة الناهية هي من عند الله سبحانه ، وبعبارة أخرى فإن عملنا هو الاجتهاد والاستنباط والتفصيل والتكييف ، والاجتهاد في الشريعة باب مفتوح للرجال والنساء جميعا، ولم يقل أحد من الأصوليين إن من شروط الاجتهاد الذكورة ، وإن المرأة ممنوعة من الاجتهاد) .

(ومما لا جدال فيه أن ثمة أموراً في التشريع تتعلق بالمرأة نفسها وبالأسرة وعلاقاتها، ينبغي أن يؤخذ رأى المرأة فيها وأن لا تكون غائبة

عنها، ولعلها تكون أنفذ بصراً في بعض الأحوال من الرجال) .

(على أننا حين نقول بجواز دخول المرأة فى مجلس الشعب لا يعنى ذلك أن تختلط بالرجال الأجانب عنها بلا حدود أو قيود ، أو يكون ذلك على حساب زوجها وبيتها وأولادها ، أو يخرجها ذلك عن أدب الاحتشام في اللباس والحركة والكلام ، بل كل ذلك ينبغي أن يراعى بلا ريب ولا نزاع من أحد) .

ويشير الدكتور في فتواه إلى أن الحاجة تقتضي من المسلمات الصالحات أن يدخلن معركة الانتخاب في مواجهة المتحللات . والحاجة الاجتماعية والسياسية قد تكون أهم وأكبر من الحاجة الفردية التي تجيز للمرأة الخروج إلى الحياة العامة[١] .

أما مولانا أبو الأعلى المودودي فقد أكد في وثيقة الدستور الإسلامي كما أعدها لدولة باكستان – على أن الرجولة شرط في عضوية مجلس الشورى فضلا عن الترشيح لرئاسة الدولة ، مستدلا على ذلك بقوله تعالى ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ وبقوله عليه السلام « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » فهذان النصان عنده قاطعان بأن المناصب الرئيسية في الدولة ، رئاسة كانت أو وزارة أو عضوية مجلس الشورى أو إدارة مختلف مصالح الحكومة، لا تفوض إلى النساء .. وأن السياسة والحكم خارجان عن دائرة أعمال المرأة[٢]

(١) د. يوسف القرضاوي – فتاوى معاصرة نقلا عن الأستاذ عبد الحليم أبو شقه تحرير المرأة في عصر الرسالة ص ٤٤٨ وما بعدها – جـ ٢ ط دار القلم ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

(٢) المودودي : تدوين الدستور الإسلامي ص ٦٥ .

وقد ذهبت إلى هذا الرأي لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ولجنة أخرى للفتوى بالكويت، فمنعت عن النساء حتى حق المشاركة في الانتخاب[1].

ولأن حديث الأستاذ المودودي شمل عضوية النساء في مجلس الشورى، وتجاوزها إلى غيرها من المناصب العليا في الدولة، فقد اعتبرنا دحض هذا الموقف ضروريا، لإزالة العوائق من طريق المشاركة الضرورية في نهضة الأمة، من طرف النساء في جميع المجالات حسب مؤهلاتهن.
لقد أخذني العجب بعد مطالعتي هذه الفتاوى القاضية بعزل المرأة عن كل مشاركة في الحياة العامة، استناداً إلى الآية والحديث المتقدمين، فرجعت إلى ما وصلت إليه يداي من كتب التراث الإسلامي، وخاصة في مادة السياسة الشرعية، أبحث عن مواقف المتقدمين من هذه المسألة، فازدادت دهشتي إذ لم أظفر في ما طالعته من مباحث، بطرح لهذه المسألة في غير باب الإمامة، حيث انعقد الاجماع أو كاد بين علماء السياسة الشرعية على منع الولاية العامة (الإمامة) على المرأة، استناداً إلى الحديث المتقدم، رغم أن كثيراً من العلماء قد خول لها منصب القضاء على أهميته، لدرجة أن أبا يَعْلَى الفراء اشترط في الإمام (أن يكون على صفة من يصلح أن يكون قاضيـًا : من الحرية والبلوغ والعقل والعلم والعدالة)[2] وحتى منصب الولاية العامة أو رئاسة الدولة، قد ذهبت بعض فرق الخوارج مثل الشبيبية، إلى جواز إمامة المرأة إذا قامت بأمورهم وخرجت على مخالفيهم، وقالوا إن غزالة أم

---

(١) ورد ذلك في كتيب (فتاوى في أحكام النساء) مطبوع بمصر (غير مؤرخ).
(٢) أبو الحسن الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية القاهرة ١٩٦٦ .

شبيب كانت إماماً بعد موت شبيب[1] . وكان لعائشة أم المؤمنين شأن في السياسة إذ قادت معارضة مسلحة، ضمت ما يزيد على ثلاثة آلاف من الجند فيهم من الصحابة بعض المبشرين بالجنة، وكانت – كما ذكر أبو بكرة – تأمر وتنهي وإذا الأمر أمرها[2] . فكانت في مقام الرئاسة تخطب وتفاوض وتنصب إمام الصلاة[3] . واشتهرت في التاريخ الإسلامي نساء أخريات في ميدان السياسة ، منهن الحرة الصليحية التي حكمت مواطن من اليمن مدة تزيد على أربعين سنة من القرن السادس. ولقد استند المجيزون إمامة المرأة الإمامة العظمى، إلى أن عموميات الإسلام تؤكد المساواة بين الذكر والأنثى، وأن الحديث المذكور لا يمثل أساساً صالحاً لتخصيص عموم المساواة، ذلك أن الحديث المذكور ورد بخصوص حادثة معينة، صورتها أنه لما ورد على النبي ﷺ أن كسرى فارس مات وأن قومه ولّوا ابنته مكانه، قال عليه السلام ذلك القول تعبيراً عن سخطه على قتلهم رسوله إليهم– فالحديث لا يتعدى التعليق على الواقعة المذكورة حتى يكون مرجعاً في مادة القانون الدستوري، خاصة وأن علماء الأصول لم يتفقوا على أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب. فما كان لفظه عاماً لا يعني أن حكمه عام أيضاً، الأمر الذي يجعل الحديث لا ينهض حجة قاطعة– فضلاً عن ظنيته من جهة السند– على منع المرأة من الإمام العامة(*).

---

(١) الملل والنحل للبغدادي ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) شرح النهج ٢/٨١ نقلاً عن القاسمي المصدر السابق ص ٣٤٧ .

(٣) شرح النهج ٢/٨١ نقلاً عن القاسمي المصدر السابق ص ٣٤٦ – ٣٤٧ .

(*) ظنية الحديث تأتي من جهة راويه وهو أبو بكرة رضى الله عنه فعلى الرغم من أنه =

أما الآية المذكورة فلم يرَ فيها علماء السياسة الشرعية قبل المودودي سندًا لمنع المرأة من الولاية العامة فضلاً عن منعها من المشاركة السياسية جملة .. اذ أن القوامة إذا كان معناها الرئاسة بإطلاق، كانت النتيجة منع المرأة من الرئاسة أبداً في أي مستوى من المستويات، حتى ولو كان دارا لرعاية الأطفال أو إشرافاً على تطبيب أو تحقيقًا في شأن أو إدارة لمتجر أو مصنع .. وهو شطط لم يذهب إليه – فيما علمنا – أحد من علماء الإسلام القدامى أو المحدثين ومفسري القرآن الكريم . حتى إن أشهر مفسري القرآن الكريم في هذا العصر ، على منزعه السلفي في التفسير وميله الشديد إلى مخالفة ما جاء عن الغرب، قد اعترف وهو بصدد تفسير آية القوامة، أنه كان يذهب في فهمه للآية المذكورة إلى أنها تعني الرئاسة العامة للرجال على النساء في كل شأن، ولكنه عدل بعد طول تأمل عن هذا الرأي، ذلك أن سياق الآية هو حديث عن الخلافات الزوجية مما يقضي أن الرئاسة الواردة في الآية لا تتجاوز نطاق الأسرة(١). وهي رئاسة ككل

= صحابي جليل من مسلمة الفتح إلا أنه كما ذكر عن نفسه قد حُدَّ في القذف.. وقد اختلف العلماء في قبول شهادة المحدود التائب .. ولم يرجع أبو بكرة مع أن السلامة من الفسق شرط في قبول الرواي لدى المحدثين .. ورغم أن أبا بكرة من شيوخ البخاري ووثقه وروي عنه في صحيحه إلا أن الأحكام الشرعية وخاصة ما تعلّق منها بنظام الدولة الإسلامية ما ينبغي أن تبنى على سند ظني مهما كانت درجة الظنية ضئيلة .. ويستخلص الأستاذ محمود المرادي من مناقشته المطولة للعلماء الذي استندوا إلى حديث أبي بكرة لمنع النساء من الولاية العامة – ودعك ممن استشهد به على منعها من المشاركة السياسية اطلاقاً – « إن الدليل على عدم جواز المرأة في الحكم غير كاف والله أعلم » (الخلافة بين التنظير والتطبيق ص ١٣١) .

(١) ارجع إلى ظلال القرآن جـ ٣ للشهيد سيد قطب – النص مروي بالمعنى .

الرئاسات لا مجال فيها للاطلاق بل هي خاضعة وجوبًا للنص والشورى .. ولقد وردت الشورى في إحدى مواردها الثلاثة في القرآن الكريم في شأن العلاقات الأسرية .. ﴿ عن تراضٍ منهما وتشاور ﴾ البقرة : ٢٣٢ .

والنتيجة أنه ليس هناك في الإسلام ما يقطع بمنع المرأة من الولايات العامة قضاء أو إمارة . وحتى على فرض ذهابنا مع الجمهور إلى منعها من الولاية العامة (رئاسة الدولة) فبأي مستمسك يستمسك غاصبوا حقها المشاركة في ادارة الشؤون العامة في كل المستويات؟(*)

ليس لهم من مستمسك غير التقليد وليتهم قلدوا الآباء في عصورهم الذهبية ، عصور تحرر العقل وانطلاق الأمة ، اذن لكانوا أهدى سبيلاً، ولقرأوا عند شيخ المفسرين ابن جرير الطبري والإمام أبي حنيفة وفقيهنا الثائر الأندلسي ابن حزم، أنهم قد أجازوا للمرأة لا مجرد المشاركة في الانتخاب أو الانتماء إلى الأحزاب أو القيام ببعض وظائف الدولة كالكتابة والوزارة ، بل قد أجازوا لها تولي القضاء وهو من

(*) ولقد سرّنا جدا إقدام أهم أعلام الفكر الإسلامي المعاصر .. شيخنا محمد الغزالي بارك الله في عمره على مواجهة تيار المحافظة في أهم قلاعه التى لا تزال متحصنا فيها أعني موضوع المرأة .. من خلال كتابه « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » ط ٦ أكتوبر ١٩٨٩ تأصيله لمكانة المرأة في الإسلام وازاحته من طريق مشاركتها الفاعلة في النهضة الإسلامية كثيرا من العوائق ومخلفات القرون .. متحصنة بالدين وليست منه . ولقد ذهب في موضوع مشاركة المرأة السياسية نفس الاتجاه . وللأسف لم يكن كتاب الشيخ قد صدر بعد لما كتبنا كتابنا هذا صائفة ١٩٨٦ ، فكان منسجما مع ما تعلمنا في كتبه من توجهات تحررية مؤصلة

الولايات العامة التي تقاس شروط الإمامة عليها .. ولو تحرروا من تقليد آباء عصور الجمود وامتدت أبصارهم إلى أبعد من ذلك إلى عصر التشريع ، عصر النبي وخلفائه عليهم الصلاة والسلام ، لألفوا المرأة لا تشارك بالرأي فحسب في الشؤون العامة بل تشارك بالسيف أيضاً وتتدخل في ساعة الأزمات بالرأي السديد والحل المنقذ ، كما تدخلت أم سلمة رضى الله عنها في صلح الحديبية لما أغضب الأصحاب نبيهم ﷺ فلم يطيعوه، فدخل عليها مهموماً فأشارت عليه بالحل الذي أنقذ الموقف، في أحرج موقف عرفته العلاقة بين القائد وصحبه . فهل اعترض النبي ﷺ على تدخّلها بحجة أن هذه سياسة ، وأن السياسة والحكم خارجان عن دائرة أعمال المرأة كما ذكر شيخنا المودودي ؟ .. عفا الله عنه - بعد أربعة عشرة قرنًا .. ؟ وهل كان رئيس مجلس الشورى عبد الرحمن بن عوف وهو ينفذ وصية عمر بن الخطاب في إفراز أحد المرشحين الستة للخلافة ، فما ترك أحداً في المدينة إلا استشاره حتى كان يدخل إلى خدور النساء لأخذ رأيهن في المرشح المفضل . هل كان غائبا عنه كتاب الله وسنة نبيه بما في ذلك آية القوامة وحديث بنت كسرى ؟! أم لأنه كان مستحضرًا كل ذلك لم يهمل رأي النساء في هذا الشأن العظيم؟! كيف لا والشؤون العامة تنعكس نتائجها على الرجال والنساء على حد سواء ، فبأي مبرر تقصى المرأة عن شأنها وهي إنسان مكلف كامل التكليف .

وإن مما يعزّي النفس أن معظم رجال السياسة الشرعية في هذا

العصر لم يذهبوا بدافع التقليد للآباء– أو رد الفعل على الغرب– إلى ما ذهب إليه شيخنا المودودي ، بل قد أقروا أن الأصل في الحقوق العامة المساواة بين الرجال والنساء ، عدا مواطن قليلة تقتضيها ضرورة التكوين أو ضرورات المجتمع . ونكتفي هنا بنقل هذه الفقرات اللامعة للشيخ الأزهري عبد الله دراز رحمه الله من كتاب دستور الأخلاق في القرآن[١] « إن القرآن يقرر مشاركة الرجل والمرأة في كيان الدولة والمجتمع سواء بسواء – عدا بعض استثناءات قليلة متصلة بخصوصيتها الجنسية ـ ويجعل لها الحق مثله في النشاط الاجتماعي والسياسي بمختلف أشكاله وأنواعه . ومن جملة ذلك الحياة النيابية وغير النيابية مما يتصل بتمثيل طبقات الشعب ، ووضع النظم والقوانين ، والإشراف على الشؤون العامة ، والجهود والدعوات والتنظيمات الوطنية والكفاحية والاجتماعية والاصلاحية » .

والقول بأن المرأة المسلمة جاهلة غافلة ، وأنها لا ينبغي شغلها في غير بيتها وأمومتها ، ليس بشيء ، فالسواد الأعظم من الرجال في البلاد الإسلامية والعربية هم أيضًا جاهلون وغافلون ، ولم يقل أحد إنهم يجب أن يحرموا بسبب ذلك من حقوقهم السياسية والاجتماعية ، وليست كل امرأة مرشحة لمباشرة العمل والنشاط في المجال السياسي والاجتماعي ، وإنما يترشح لذلك أفراد كما هو شأن الرجال ، مما لا يتحتم أن يكون معناه أو مؤداه انصراف النساء عن بيوتهن وأمومتهن .

(١) دستور الأخلاق . نقلاً عن نظام الحكم في الإسلام : القاسمي ص ٣٤٣ .

ونقول هذا من قبيل المساجلة وبقطع النظر عن الدلائل القرآنية التي تمنح المرأة الحقوق السياسية والاجتماعية والمدنية أسوة بالرجل ، والتي ينبغي أن تكون هي القول الفصل في صدد ما نحن بسبيل تقريره .

وإذا كانت المرأة في القرون الإسلامية الأولى لم تشترك في شؤون الدولة بمقياس واسع ، فمردّ هذا إلى طبيعة الحياة الاجتماعية ، وليس من شأنه أن يعطل الأحكام والتلقينات القرآنية ، لأن كتاب الله وسنة رسوله الثابتة، هما منبع الشريعة والأحكام الإسلامية لمختلف العصور والبيئات . ومع ذلك فقد كانت مساهمة المرأة عظيمة في حركة التغيير وبناء الحضارة الإسلامية، سواء في المرحلة المكية أو المدنية وفي العهد الراشدي وسائر عهود الازدهار . كانت حاضرة في أخطر المواقع مثل عقد تأسيس الدولة الإسلامية .. والغزوات . واستند ابن حزم على تولية عمر بن الخطاب « الشفاء » الحسبة على السوق ليقرر : « وجائز أن تلي المرأة الحكم » عدا رئاسة الدولة في رأيه .

أما تقي الدين النبهاني فقد ذهب في دستوره أنه « لكل من يحمل التابعية (الجنسية) إذا كان بالغا عاقلاً الحق في أن يكون عضوًا في مجلس الشورى رجلاً كان أو امرأة[١] .

وفي دستور الجمهورية الإسلامية الذي يعد في مجمله خلاصة

---

(١) النبهاني المصدر السابق ص ٥٤ .

لجهاد الحركة الإصلاحية على صعيد الفكر والعمل[*] تتبوأ المرأة منزلة مرموقة تجسيدًا لآية التوبة ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ التوبة : ٧٠ .

فقد ورد في المادة الواحدة والعشرين « الحكومة مسؤولة عن توفير حقوق المرأة في كافة المجالات مع ملاحظة القيم الإسلامية » .

وفي المادة العشرين ورد : يتمتع جميع الأفراد – سواء المرأة والرجل – بحماية القانون بصورة متساوية كما يتمتعون بكافة الحقوق الإنسانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع مراعاة الموازين الإسلامية[١] . ولا عجب أن يُحلّ الدستور الإيراني المرأة مكانة عظيمة وقد كانت مساهمتها في تفجير الثورة وصنع قوافل الشهداء الذين دوخوا الأعداء ، فكان لها مكانها في مجلس الشورى كما كان لها قبل ذلك مكانها في المسيرات الشعبية وفي كل موطن من مواطن الفداء . وكانت مشاركتها تلك خير معين لها في حسن أدائها لمهمتها الرئيسية في تخريج أجيال البناء والشهادة .

ولا عجب أن تظل « الجماعة الإسلامية » في باكستان ــ على عمق وأصالة فكر مؤسسها العظيم ــ جماعة نخبوية غير قادرة على صناعة مد

(*) حجة الإسلام الشيخ محمد علي تسخيري : حول الدستور الإسلامي . منظمة الإعلام الإسلامي – طهران – ١٤٠٢ هـ .

(١) وثيقة الدستور . وانظر المصنف الهام للسيد آية الله منتظري « دراسات في ولاية الفقيه » لم يورد فيه شروط المستشار المذكورة .

جماهيري طالما ظل موقفها الاجتماعي عامة ومن المرأة خاصة محافظًا .

الخلاصة : أنه ليس في الإسلام ما يبرر اقصاء نصف المجتمع الإسلامي عن دائرة المشاركة والفعل في الشؤون العامة .. بل إن ذلك من الظلم للإسلام ولأمته قبل أن يكون ظلمًا للمرأة ذاتها .. لأنه على قدر ما تنمو مشاركة المرأة في الحياة العامة ، على قدر ما يزداد وعيها بالعالم وقدرتها على السيطرة عليه، وأنه لا سبيل إلى ذلك من غير إزالة العوائق الفكرية والعملية من طريق مشاركتها في الشؤون العامة، والارتقاء بوعيها بالإسلام والعالم، والثقة بقدراتها حتى تكون مساهمتها فعالة في صناعة جيل يخرج عن خويصة نفسه لينخرط في الهموم العامة للأمة والإنسانية . نحن إذن مع حق المرأة الذي قد يرتفع أحيانًا إلى مستوى الواجب في مشاركتها في الحياة السياسية على أساس المساواة في إطار احترام أخلاقيات الإسلام .. فإنما التفاضل بالكفاءة والخلق لا بالجنس أو اللون وتأمل في هذه الآية العظيمة **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** الحجرات:٢

فما أحوج صحوتنا ونهضتنا إلى زعامات نسائية على كل صعيد من نوع الشيخة زينب الغزالي والدكتورة سعاد الفاتح ، أين بناتهما ؟ .

الفهـــرس

الموضـــوع | الصفحة

المرأة في القرآن الكريم :

الحلقة الأولى : مقدمة ٥
الحلقة الثانية : اسكن أنت وزوجك الجنة ١٩
الحلقة الثالثة : وليس الذكر كالأنثى ٣١
الحلقة الرابعة : إن كيدهن عظيم ٥١
الحلقة الخامسة : حب النساء ٦٣

المرأة في تونس :

المرأة فى الحركة الإسلامية ٨٧
حوار حول المرأة فى ثانوية للبنات بتونس ١١٧
التمزق الأسرى فى تونس ومجلة الأحوال الشخصية ... ١٣٣
هل تحل وظائف القيادة للمرأة ؟ ١٥٠